مجمع اللغة العربية بدمشق

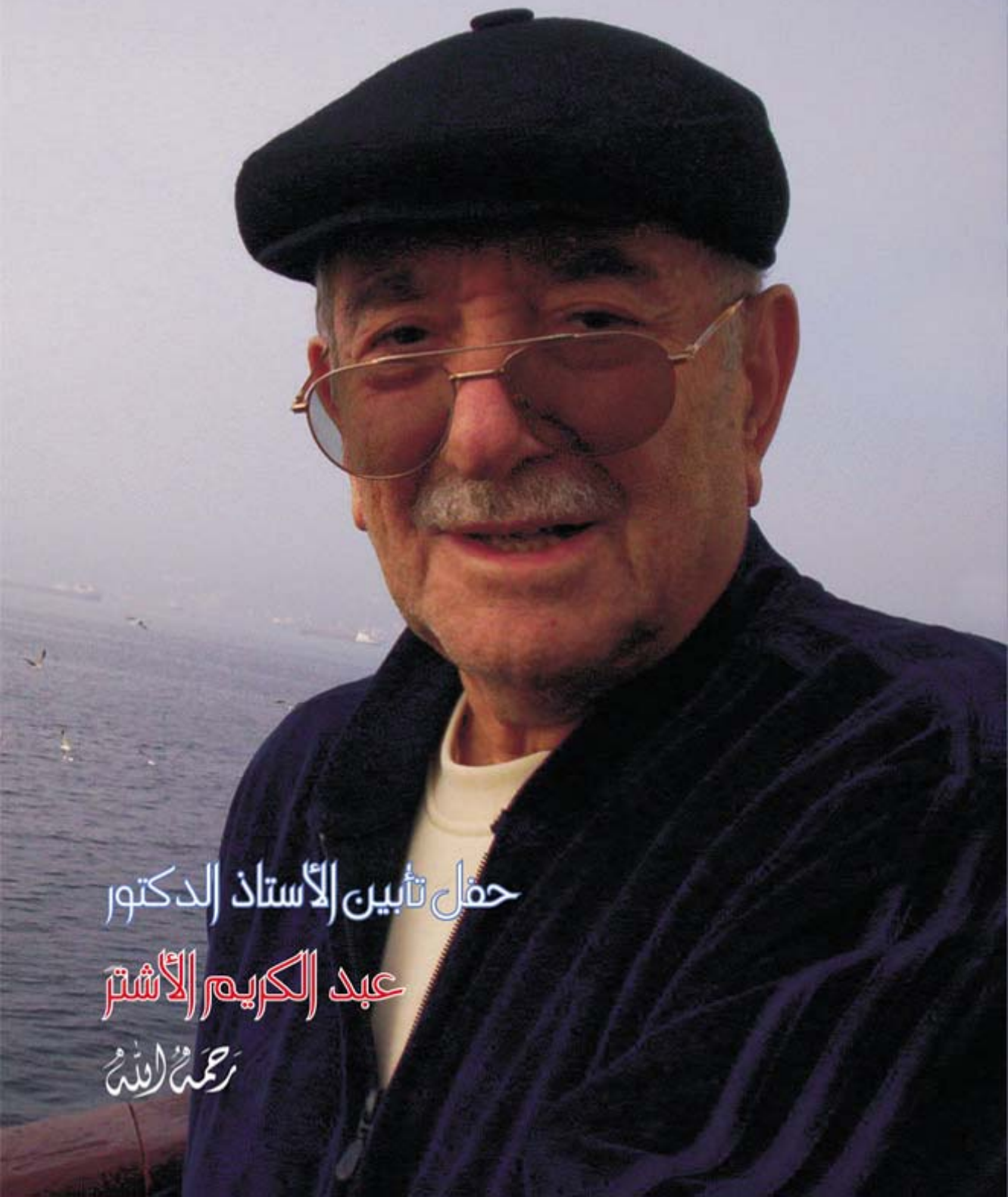

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

عبد الكريم الأشتر

رحمه الله

مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

عبد الكريم الأشتر

رحمه الله

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حفل تأبين
الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر
رحمه الله

مقدّمة

أقيم في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء ١٨/ ١/ ١٤٣٣هـ الموافق ١٤/ ١٢/ ٢٠١١م في قاعة المحاضرات بالمجمع حفل تأبيني للراحل الكبير عضو الشرف في المجمع الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله، وذلك برعاية السيدة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية.

وقد اختار الله فقيدنا إلى جواره يوم الجمعة في ٧/ ١٠/ ٢٠١١، بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء.

حضر الحفل السيدة الدكتورة نجاح العطار ولفيف من الشخصيات الرسمية والأدبية والثقافية وجمهور غفير من المهتمين باللغة والأدب العربيين.

- بُدئ الحفل بتلاوة مباركة من الذكر الحكيم. تبعها عرضُ فيلم وثائقي عن حياة الفقيد.
- ثم تتابع إلقاء الكلمات كما يلي:
  - كلمة السيدة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار راعية الحفل، ألقاها بالنيابة عنها السيد رئيس المجمع.
  - كلمة مجمع اللغة العربية ألقاها رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني.
  - كلمة جامعة دمشق ألقاها رئيس الجامعة الدكتور محمد عامر ماردیني.

- كلمة جامعة حلب ألقاها عضو الهيئة التدريسية في جامعة حلب الدكتور عيسى العاكوب، عضو المجمع.
- كلمة لجنة التمكين للغة العربية ألقاها رئيس اللجنة الدكتور محمود السيد.
- كلمة أصدقاء الفقيد ألقاها عضو المجمع الدكتور مازن المبارك.
- كلمة طلاب الفقيد ألقتها عضو الهيئة التدريسية في جامعة دمشق الدكتورة ماجدة حمود.
- كلمة آل الفقيد ألقاها ولده الدكتور محمد الأشتر.

• وكان الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع والدكتور محمود السيّد نائب رئيس المجمع قد ألقيا كلمتين في حفل التأبين الذي أقامته مديرية الثقافة بحلب بتاريخ ١٥/ ١١/ ٢٠١١

وفيما يلي نص الكلمات التي ألقيت في هذا الحفل، وكلمتي الدكتور المحاسني والدكتور السيد في جامعة حلب.

كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية

السيدة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار راعية هذا الحفل

أيها السيدات والسادة

يشرفني أن أفتتح هذا الحفل التأبيني لفقيدنا الكبير الدكتور عبد الكريم الأشتر بتكليف من السيدة النائب، لأنقل إليكم ما تخص به ذلك العالم الفاضل والأستاذ الكبير من التقدير، وهي تشاركنا في إكبارنا لأعماله العلمية وتأكيدنا لمقامه الرفيع في خدمة اللغة العربية ومكانته المتميزة في حقل اختصاصه.

فشكرًا للسيدة النائب على تفضلها بالحضور.

❀ ✿ ❀ ✿ ❀

أيها السيدات والسادة:

إنها المناسبة الثانية التي تملأ فيها أصداءٌ لاسم الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله أرجاءَ مجمع اللغة العربية، اعترافًا بفضله، وتأكيدًا لمكانته العلمية الرفيعة.

فقد كانت الأولى حين أجمع مجلس مجمع اللغة العربية على انتخابه أولَ عضو شرف في هذا المجمع العريق، ليُضمَّ اسمه إلى تلك الأسماء التي تميّز أصحابها بصدق انتمائهم إلى الثقافة العربية، وحرصهم على سلوك طُرُقٍ جديدة تعيدُ اللغة العربية لغةً عالمية، مؤهَّلةً لحمل أعباء العلوم عامةً، والعلوم الحديثة خاصة، بما يقود إلى فتح الأبواب واسعةً أمام أبنائها، للمساهمة في بناء عالم الغد.

وأنتم تشاركون اليوم في المناسبة الثانية، وقوامها حفل تأبيني، يجعل من هذا المنبر منطلقًا لأصداء أخرى، تردّد ما نَودّ أن يعرفه مجتمعنا، عن رجل وَهبَ حياته للعلم، وجعل من خدمة اللغة العربية وآدابها منارةً يهتدي بها، وتتحكّم بكل نشاطاته، وذلك إرضاءً لإيمانه العميق بلغةٍ أتاحت له فهمَ العالمِ من خلال ألفاظها وتراكيبها، واستقرّت في نفسه مرتكزًا لهويته.

إن اللغة العربية ككلّ اللغات ما هي سوى ألفاظٍ وتراكيبَ، تتجلى كلامًا منطوقًا أو نصوصًا مكتوبة. فإذا كان الكلام حُرا كما هو معروف يُستطاع التعبيرُ به عن المقاصدِ بأساليبَ تجمع بين ألفاظٍ مفردةٍ لِتنتظم في مساردَ متكاملة، فإن النصوصَ مُقَيّدة بقواعد وضوابطَ وشروطٍ تختلف بين لغة وأخرى باختلاف تلك النواظم. ولغتنا لغة اشتقاقية تُعدّ من أوسع لغات العالم جذورًا، ومن أدقّها في السبك والتركيب، ملتزمةً قواعدَ توضّح العلاقة بين اللفظ والمعنى، لتوصل القولَ إلى البيان الصريح حتى حين يُحمّلُه الكاتب ثمارَ تخيّلاته وجماليات المجاز.

فإذا أراد باحث في مستوى الدكتور الأشتر النفوذَ إلى قلب اللغة، متوخّيًا التناغم مع روحها، كان لابد له من الانغماس في نصوصها التراثية، إذ إن هذا الانغماسَ هو السبيل لتتكوّن لديه مَلَكَةُ الأسسِ التي يمكن له أن يبنيَ عليها مشروعه.

هو مشروع يستخلص فيه، من ذلك الزَّخْم المعرفي الذي امتّد صُعدًا على أجنحة الفتوحات العربية، عناصرَ تُتيح له فهمَ ما طرأ على اللغة من تطورات، أوصلتها إلى ما هي عليه.

وهذا أمرٌ يَعسُر الوصول إليه بدراسة النصوص الحديثة، بعد أن اعتمدت طابعًا حداثيًا، تسوده نزعةُ التقليدِ الرثِّ للغرب، وتقديسِ الوافد، وازدراءِ الموروث، وكلّها أدوات فعّالة في الاتجاه نحو التغريب، بالإصرار على التحديث القسري.

وحين قام بمراجعة النقد العربي القديم كانت الغاية من تلك المراجعات «أن نُحسن الإفادة من قيَمها وأحكامها في دراساتنا النقدية، لقوة صلتها بحقائق تكويننا، ونظرتنا الخاصة إلى ذواتنا، وإلى الوجود من حولنا، وصِلتنا بمجموع التراث الأدبي العربي».(*) وقد كان اختيارُه هذا للنصوص القديمة تمييزًا لها عما صدر من نصوص في عصور الانحطاط التي تلت ذلك الانفجار المعرفي العظيم، تلك التي اشتُهرت بما سيطر على اللغة من تراجعٍ، أنتجه الانكفاء إلى الداخل، على أفكار السلف في الحواشي والمختصرات. وقد وصف جابر عصفور هذا الانكفاء بالجمود «خصوصًا في اقترانه بأنساقٍ ثبتت فجمُدت، وأعرافٍ استقرّت فتكلّست، وعادات اتُّبعت إلى أن تحجّرت».

ولاشك بأن التعمّق في دراسة التراث لا يحول دون الانفتاح المتوازن على الحداثة، للأخذ منها دونما شعور بالنقص أو الدونية، وهذا ما يعني تأكيدَ الحفاظ على خصوصيتنا الثقافية والقيمية، وهو ما يحول دون تسوّل أجوبةٍ ثقافية غربية عن معضلات مجتمعنا دون وعيٍ الفارق في البنى والتاريخ.

وإن الانفتاح على الحضارات الأخرى، كما نراه في استشهادِ الدكتور الأشتر بأمثال هيبوليت تين H. Taine وسانت بوف Sainte Beuve الفرنسيين من جهة، واعتمادِه ما أضافه التحليل النفسي من أدواتٍ تساعد على كشف خفايا الخطاب من جهة أخرى، يؤكدّ أن هذا الانفتاح لا يعني اعتبارَ تلك الحضارات «مستودعاتٍ للحقائق»، بل هو وسيلة ينأى بها الناقد عن التشرنق على الهوية، مفهومةً بوصفها ماهيةً مطلقةً لا تغتَني ولا تتطور.

لذا كانت دراساته جميعها تهدف إلى استخراج الدروس من تراثنا في مواجهة التنميط الثقافي الغالب، فهو حين يستكشف منطلقات التجديد في دراسته لشعر أبي نواس

(*) مراجعات نقدية / ص٥.

يرى أن التجديد في وسائل التعبير يأتي «دائمًا بعد قيام المفارقات الصارخة بين مضمون العصر الجديد ووسائل تعبيره الشعرية، حتى تقبلَه النفوس وتأتلفَ معه، لإحساسها بالحاجة إليه».[1]

إنّ أعمال الدكتور الأشتر قد شملت ما يسميه «الساحةَ اللغويةَ»، وهو يُعرّفها قائلًا: «هي الساحة التي نبني فيها انتماءنا الصريح، ونحفظ هويتنا الفكرية ومشروعنا الحضاري العام، ونَدخل على المستقبل الذي نريده من أبوابها كلها: السياسية والاقتصادية والثقافية» اهـ[2] وهي أعمال تمثل تحليلًا معمّقًا للغة في صلتها بمستعمليها في مختلف السياقات الاجتماعية، واللغةُ العربية بتراثها الثقافي والعلمي والأدبي والفنّي، تحتاج إلى توثيق نقدي لأصالتها، وتأكيدٍ لاعتمادها الأساسَ الثقافي المتين لكل بناء حضاري مستقبلي، إذ إن المستقبل الثقافي لا يصنعه الحاضرُ ما لم يستند إلى قواعدِه الحيّة، التي يقوم عليها في الماضي.

ويمكننا القول بأن دراساته في الشأن اللغوي لها وجهٌ نضالي، مع أنه نأى بنفسه عن كل موقفٍ انفعالي أو حماسي، واكتفى بإبراز منزلة اللغة العربية تاريخيًا، مع الإصرار على إبداعاتها البلاغية، كما نراه في دراسته للبيان والتبيين، وحتى في دراسته للمواويل الشرقاوية المصرية في كتابه «ألوان».

وهو قد اهتم بتقويم الأثر الذي يخلّفه النص الأدبي في النفس، مستقصيًا حقائقه الفَنيّة، المستخلصة في الزمان والمكان اللذين خضع لأحكامهما، وهو عمل يرتبط باللسانيات الاجتماعية من جهة، واللسانيات التطبيقية من جهة أخرى، وهذا أمر واضح في دراسته لكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ.

---

(١) مراجعات نقدية / ٢٠٠٩/ ص١٤٥.

(٢) العربية في مواجهة المخاطر / ص١٤.

أيها السيدات والسادة

ما الحياة سوى هنيهاتٍ تنسابُ في مسالٍ زمني لا انقطاع فيه، ولا يبقى منها في الوعي إلا ذكرياتٌ تنتظم في طيّات الوجدان الشخصي أو الجماعي محتفظةً بموقعها فيه. ولقد حاولت في هذه المناسبة، التي جعلناها تثبيتًا لذكرى فقيدنا الكبير، أن أتطرّق في لمحاتٍ قصيرة إلى جُزَيرات فكريَّة في بحر أعماله الأدبية.

إنها دراسات ثقافية أصيلة تدخل في المخططات اللغوية، تصوّرًا وتنفيذًا ومتابعة، وهي تشكّل مستندًا في التصدي لمصادر الضعف والإحباط، في مواجهة الثقافات المتقدمة، كما أنها سياجٌ يحول دون الانجراف وراء ما نراه من زهوٍ طاغٍ بالموروث القديم، يصل إلى حد تقديسه، وحقيقة الأمر أننا حَرِيُّون حريّ بنا أن ندرك أن عصرنا بحاجة إلى قواعدَ يعتمدها لفَهم هذا الموروث، فهمًا يُسوّغ إعجابنا به، بعد أن تتوضّحَ لنا قيمُه الحقيقية.

وإن استذكار أعمالِ أديبنا الكبير في مثل هذه المناسبة يضيف الكثير إلى عراقة هذا المجمع، إذ نضمّها إلى آثارٍ متميزة تركها لنا مؤسسوه. إنّ أعمالَه قد أبرزته باحثًا دقيقًا تناول العديد من الأنواع الأدبية بفطنةٍ ورصانةٍ ودقة، وهي تخدم أغراض مجمعنا، حتى بعد أن سلكنا مسارًا جديدًا أضفناه إلى الدراسات اللغوية الأدبية الصرفة، وهو تسهيلُ نقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية بالإصرار على إيلاء توفيرِ المصطلحات العلمية الأولويّةَ في حركة التعريب. وإنه لمسار شاق في مواجهة ما نراه من تطور متسارع في مختلف العلوم والتقانات، وقد قبلنا التحدي معتمدين خبرات الأجداد في مواجهتهم لحضارات غامرة أغرقت بلاد الشرق، مستلهمين من روح لغتنا طاقاتٍ بقيت تدفعها قرونًا عديدة، مستنكرين ما يُروّجه المستشرقون بأنّ اللغة العربية مصابةٌ بانغلاق صرفي ومحدودية اشتقاقية، كما يقول ويلكوكس (ت ١٩٣٢) أو أن موت الفصحى قد أضحى مُحققًا كما ماتت اللاتينية، حسب قول الآخرين.

بل نقول إن الفصحى ستبقى حية متطورة مادام فيها رجال ونساء يبذلون طاقاتهم لتعود لغةً عالمية تحمل هموم الإنسان، وتشاركُ في ارتقائه الحضاري، وذلك لأنهم يعشقون جمالياتها، ويعبّرون عن ذواتهم بدقيق تعابيرها، ويستظلونها هويةً يفخرون بها.

رحم الله فقيدنا أحد هؤلاء الرجال وأسبغ عليه رضوانه.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ الدكتور عامر ماردِيني

رئيس جامعة دمشق

﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ۞ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ S

فقدت جامعة دمشق برحيل المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر أحد أبرز أعلامها.

اسم لامع برز في مجال الدراسات الأدبية واللغوية والنقد الأدبي... قامة علمية أسهمت في التعليم الجامعي، وفي تطوير البحث الأدبي... كتب وألف في مجموعة من القضايا التي تتعلق بالأدب العربي قديمه وحديثه، وبفنونه المختلفة، من شعر دعبل الخزاعي ونصوص من الأدب العباسي، وكتاب الاعتبار، إلى الأدب الحديث معرّفًا بالنثر العربي الحديث وبأدب النكبة وبفنون النثر المهجري مع ألوان ومساراتٍ نقدية. وكثير مما أسهم في إغناء المكتبة العربية علمًا وأدبًا ونقدًا.

كان الدكتور عبد الكريم الأشتر يتميز بنزعته الإنسانية الفياضة، نزعة رافقته في حياته وعمله، وخياراته، وأضفت عليه نبلًا وسموًا وصفاءَ نفس، وبساطة آسرة في تعامله وتواضعه وأدبه الجم، وجديته، وعفويته المحببة.

كان همه الارتقاء بالنفس الإنسانية إلى مساحات تليق بالذات الإنسانية، لتتَّسق مع مقولات العقل والحكمة من دون أن تفقد حرارة الروح واتقاد الوجدان.

عُرف الدكتور الأشتر، بدراسة الأدب الحديث ونقده، أكثر مما عرف بدراسة القديم، بالرغم من أن موضوع الدكتوراه التي نالها في مصر ـ عام ١٩٦٢ كانت عن شعر دعبل

الخزاعي العباسي مع د. مهدي علام. ومارس التدريس بعدها في العديد من الجامعات والمعاهد، فبالإضافة إلى جامعة دمشق، درّس في جامعة وهران في الجزائر وزار خلال مدَّة تدريسه ١٩٦٩-١٩٧٣ معظم بلدان المغرب العربي، بالإضافة إلى إسبانيا وفرنسا.

ثم أعير إلى جامعة الإمارات العربية مدة سنتين ليعود بعدها إلى جامعة دمشق، ويتابع نشاطه التدريسي فيها.

زار ألمانيا والقدس"قبل احتلالها" والمغرب وإسبانيا وروما ولندن وبغداد والهند والسعودية وطهران والكويت، له كتب كثيرة ومؤلفات عديدة منها:

١- التعريف بالنثر العربي الحديث وفنونه.

٢- معالم في النقد العربي الحديث.

٣- دراسات في أدب النكبة"الرواية".

٤- شعر دعبل الخزاعي.

٥- تحقيق كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ.

٦- فنون النثر في المهجر.

٧- مسامرات نقدية.

٨- ديوان العرب "٣ أجزاء"

٩- ألوان.

١٠- فواصل صغيرة، في قضايا الفكر والثقافة العربية.

بالإضافة إلى العديد من المقالات والكتب المختارة والأحاديث الإذاعية.

يمثل د. الأشتر نموذجًا رائعًا للأستاذ والأديب الموسوعي، المتنور المنفتح، المتواصل مع المحيط.

كان يقدّر الجميع، فأحبه الجميع، وبرحيله خسرت الساحة الثقافية والأكاديمية عَلَمًا من الأعلام الذين قدّموا للمجتمع أجلّ الخدمات في العلم والمعرفة والأدب، هو رمز، تغلغل بخلقه وتواضعه وأدبه إلى قلوب كل من عرفوه عيانًا أو من خلال نتاجه الثَّرّ، فرأى كل من واصله وهج إنسانيته، وعمق روحه، وأصالة قيمه...

رحم الله الأستاذ الكبير وأسكنه فسيح جناته، وليس لنا القول إلاّ قدر الله وما شاء فعل، وإنا لله وإنّ إليه راجعون.

كلمةُ جامعةَ حلب

ألقاها الأستاذ الدكتور عيسى العاكوب

عضو مجمع اللغة العربية

السيّد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع

الفضلاء السّادة أعضاء المجمع

أسرة الفقيد

الضّيوفُ الأعزّاء

الجمهور الكريم

السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته

أمّا بعدُ، فأذنوا لي أوّلًا بأن أشكر للسيّد الأستاذ الدكتور نضال شحادة، رئيسِ جامعة حلب، تكليفي تمثيلَ جامعة حلب العزيزة في هذه المناسبةِ، كما يستدعي المقامُ أن أشكر لمجمعنا الكريم دعوته إيّاي لتقديم هذه الكلمة. أمّا المناسبةُ التي جمعتنا في هذا المكان فعلى قدر كبير من الأهمّية؛ لأنّها ضربٌ من الاحتفاء بالفكر والأدب والمعرفة، أو قُلْ بالآداب والعِلْم والحِجا كما يقول الشاعرُ العربيّ:

وما تنفع الآدابُ والعِلْمُ والحِجا وصاحبُها عند الكمال يموتُ

ويدلّنا على أنّها احتفاءٌ بالعقل والإنتاج والنّفع مجيئُها غالبًا تتويجًا لحصاد العمر وثمرات الفِكْر ومحاصيل الكفاح والعنَت والسَّهَر.

وتصطبغُ أمثالُ هذه المناسبات بالوفاء؛ الذي يعني استمرار إجلال الأحياءِ لأصحاب المآثر والمنجَزات حتّى بعد ذهاب أجرامهم. وحين يكون التكريمُ من الجامعة لأحد أساتذتها يكون نمطًا خاصا من التكريم؛ نمطٌ يعبِّر عن إحساسٍ بحقٍّ معلومٍ أملاه

عطاءٌ علميٌّ وتربويّ يثمر مواطنين صالحين؛ محبّين لوطنهم، متمكّنينَ من أدوات تطويره والارتقاء به إلى حيث القوّةُ والمَنَعةُ والفعلُ الخلّاق المبدع.

وتدركُ جامعةُ حلب أنّ المرحوم، الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر، كان في المقام الأوّل أستاذًا في قسم اللّغة العربيّة من جامعة دمشق، لكنّ فيض عطائه انداح ليشمل الكثيرين من طلبة العِلْم في جامعة حلب، في الدّراسة الجامعية الأولى، وفي الدّراسات العليا في قسم اللّغة العربيّة، وفي ترقيات أعضاء الهيئة التدريسيّة في هذا القسم.

وتدرك جامعةُ حلب، إضافة إلى ذلك، أنّ الفقيد ظلّ حتّى لقاء وجه ربّه سراجًا وهّاجًا في فضاء الحياة الثقافية في سورية الحبيبة كلّها، وفي ديار العروبة الأخرى؛ وأنّه تقديرًا لهذا الفضل رشّحه قسمُ اللّغة العربيّة في هذه الجامعة ومجلسُ الجامعة لإحدى الجوائز الثّقافيّة العربيّة الكبيرة، قبل ثلاث سنوات.

أيّها الأحبّة

يعني التأبينُ في العربيّة «الثّناءَ على الشّخص بعد وفاته»، ويُبلورُ هذا الموقفُ حالةً فكريّة لا يُحتاج إليها غالبًا قبْلَ الوفاة؛ فهذا النوعُ من الغياب فرصةٌ لتأمّل سيرة المؤبَّن لاستنباط لحظات النّجاح والإشراق وإسداء الفضل في هذه السّيرة. فهل في وسعنا أن نقول إنّ الموتَ يأذن لنا بقراءة كُتبٍ، وتأمّل سِيَرٍ، لا تأذن لنا الحياةُ بقراءتها وتأمّلها. أو نقول، في مقابل ذلك، إنّ الحياةَ لا تأذن بقراءة كتب أعمال الأحياء؟.

وإذا صحّ ذاك وهذا، فما أحوجَنا إلى أن نستشعر موتَ الأعلام والمنجِزين قبل موتهم لنكون أقدرَ على قراءة إنجازهم القراءةَ البريئة الصحيحة. ويحتاج المرُء في السياق الذي نحن فيه إلى القول: كم هو كبيرٌ مقدارُ الجهد الذي علينا أن نبذله لكي نتحرّر لحظةً من نفوسنا الأمّارة لكي نرى إنجازَ الأحياء الذين يعيشون بين ظهرانَينا.

أيّها الأعزّاء

غربت شمسُ الدكتور الأشتر عن سماء الحياة الثّقافيّة في سورية وفي ديار العروبة، لكنّ أَلْقها سيستمرّ زمنًا طويلًا؛ لأنّ ديدنَ شموس العِلْم أن تُطيلَ أمدَ النّهار، وتمنحَ أبناءَ الأمّة وقتًا أطول لإبصار الأشياء على حقيقتها. وإذا كان قسمُ اللّغة العربيّة في جامعة حلب قد ودّع أعلامًا من الأساتذة من أمثال الدكتور محمد صبري الأشتر والأستاذ محمد الأنطاكي والدكتور محمد حموية والدكتور عصام قصبجي، وأخيرًا الدكتور عبد الكريم الأشتر، فإنّ أفواج المتعلّمين على هؤلاء الأساتذة ستظلّ تردّد ما قاله الشّاعر:

لولا الجذورُ المطمئنّةُ في الثّرى ما كانتِ الأغصانُ ترفعُ هامَها

ولعلّ في هذه الحقيقة ما يعزّي أهلَ العِلم الذين لم يُرزَقوا أبناءَ أرحامٍ؛ إذ هيّأ لهم المولى سبحانه أبناءَ عقولٍ وأحفادَ فِكر. وإنّ مزارَهم الحقيقيّ في صدور العارفين.

وكم هو مناسبٌ أن نردّد على الأسماع في هذه المناسبة ذلك البيتَ الذي قاله شاعرٌ كبير بالفارسيّة:

بعد از وفات، تُربتِ ما در زمين مجوى

در سينه هاى مردمِ عارفْ مزارِ ما ستْ

ومعناه:

بعد مُضيّنا من هذه الفانية، لا تبحثْ عن مَرْقَدِنا في التّراب

ففي صدور العارفينَ مزارُنا ومُقامنا

تلكم، إذًا، حالُ المنجِزينَ في الفكر والأدب والثّقافة، وذلكم هو الموقفُ منهم بعد مغادرة هذه الدّنيا إلى دار الدّوام والبقاء.

أيّها الأحبّة

يقولُ أجدادُنا إنّ العِلْمَ رَحِمٌ بين أهله، وها نحنُ اليومَ نَصِلُ هذه الرَّحِم، ونعيدُ إلى الأذهان بقدرٍ من التّجلّة ذكرى الأحبّة الذين غادرونا من دون توديع. غادرونا وتركوا لنا من ومضات عقولهم زادًا معرفيا نعود إلى مائدته نحنُ وأجيالُنا القادمة.

فباسْمِ جامعة حلب أقولُ: سَقْيًا ورَعْيًا لعهد مَنْ نحن في حضرة تكريمهم، ونضّرَ الله سبحانه ثراهم، وأجزلَ لهم المثوبة. وباسم جامعة حلب أيضًا، أشكر لمجمع اللّغة العربيّة هذا الصّنيعَ الميمونَ الذي جاء تقديرًا لخدمة العربيّة وإعلاء كلمتها وارتقاء شأنها. والله، سبحانه، هو الهادي إلى حسَنِ القول والعَمَل، و«إنّا لله وإنّا إليه راجعون». والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد

رئيس لجنة التمكين للغة العربية

نائب رئيس المجمع

أيها الحفل الكريم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لكم أحس بالصعوبة وأنا أقف هذا الموقف في حفل تأبين علم من أعلام الحكمة والثقافة والأدب في أمتنا لعجزي عن إيفائه حقه تجاه ما يتسم به من مزايا ومناقب، إنه علم من أكبر الهامات الأكاديمية العلمية والأدبية، ذلكم هو الأديب الكبير الراحل الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله.

لم تتح لي الظروف لقاء فقيدنا إلا في ثمانينيات القرن الماضي، وكنت سعيدًا أيما سعادة بسيرته العطرة وذكره الطيّب على ألسنة المدرسين والطلاب في جامعة وهران بالجزائر حيث التحقتُ بها مدرسًا عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف، وكان الراحل الكبير قد درّس فيها من قبلُ أربع سنوات قبل التحاقي بها.

ولكم هو جميل ورائع أن يكون أحدنا سفيرًا لبلاده أنّى حلَّ وحيثما ارتحل، فيذكر الآخرون وطنه بكل إكبار وتقدير واحترام بفضل سلوكه الحميد وعقله الرشيد، ويقدّمُ النموذج الحيّ والقدوة الصالحة في تصرفاته وسائر حركاته، هاجسه خدمة الرسالة التي وقف نفسه لها، وغايتُه تأدية الأمانة التي كلفها، ولقد كان الدكتور الأشتر رحمه الله ذلك السفير المجلي المتميز لوطنه في حلّه وترحاله، خدمه بكل نزاهة وإخلاص وتجرد.

كان يتسم رحمه الله بحسه النقدي وحصافة الرأي منذ أن كان طالبًا في الدراسات العليا، فها هوذا يسبغ على كل أستاذ درّسه صفة تلمّسها في شخصيته من خلال تدريسه إذ يقول : «كنا نعشق في كل أستاذ صفته: في أحمد أمين الوضوح والعمق، وفي أمين الخولي

القدرة على الإثارة والآراء المتجددة، وفي عبد الرحمن عزام نقاء عروبته ورعايته للطلبة العرب. ولكننا كنا نلتقي جميعًا هذا اللقاء العفوي من خلال هذه الشخصية الآسرة التي لا يكاد يفلت من أسرها أحد شخصية طه حسين التي كان لها في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب، والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر، والعطاء الخصب الذي لا يدانيه عطاء، إن وجوده المعنوي كان يسبق حضوره المادي، وهو من أوائل المفكرين العرب الذين ربطوا بين حرية الأديب وحرية الأدب».

وبعد أن التحق بالتدريس الجامعي كان رحمه الله مدرسًا مجليًا، وباحثًا أصيلًا، ومؤلفًا متميزًا، وكاتبًا قديرًا، وإعلاميًا كفيًا ومؤثرًا في العقول والقلوب والضمائر. مارس التدريس في مختلف المراحل التعليمية، كما مارس التأليف والكتابة الصحفية، والمشاركةَ في الندوات الإذاعية والتلفزية والإشرافَ على رسائل الدراسات العليا ومناقشةَ الرسائل الجامعية، فكانت حياته كلها حافلة بالعطاء وزاخرة بالخصب والنماء.

وتعد كتبه وبحوثه ومقالاته كنوزًا في حياتنا الثقافية، ينهل منها طلبة العلم والباحثون المهتمون بأصالة الفكر وبناء الأمة متعة الروح والعقل معًا، يشعرك بها في استعماله لغة تأسرك بحلاوتها وعذوبتها ورقتها بأسلوب ساحر يدفعك إلى التعلق بالموضوع الذي يتناوله دون ملل.

وماذا عساي أن أعدد من مؤلفات فقيدنا التي أجدني عاجزًا عن تعدادها وحصرها ومنها: التسهيل في دراسة الأدب الحديث، النثر المهجري وفنونه، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، نصوص مختارة من الأدب العباسي، غروب الأندلس وشجرة الدر، نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث، معالم في النقد العربي الحديث، دراسات في أدب النكبة، العربية في مواجهة المخاطر...الخ.

وهكذا ترون أيتها السيدات، أيها السادة أن المشهد الثقافي فقد علمًا كبيرًا وعمودًا

من أعمدة الثقافة العربية، وشعلة أنارت البصائر على مدى ستين عامًا. ولم يقف إشعاعه عند حدود وطنه الصغير، بل امتد بعيدًا حتى عم أكثر بقاع الوطن الكبير في الجزائر والإمارات ولبنان ومصر والكويت.

أيها الحفل الكريم

بعد عودة كل منا إلى جامعتنا الأم، جامعة دمشق، كنت ألتقي الدكتور الأشتر في كلية الآداب بالجامعة، وطالما بحثنا في شؤوننا الجامعية، ثم التفتنا معًا إلى كتابة المقالة الصحفية متمثلة في «حديث الصباح» بجريدة البعث. وشكوت إليه مرة الضيق الذي أكابده من جرّاء كتابة الحديث وتقديمه في موعد محدد، وكنت آنئذ في السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات عميدًا لكلية التربية بجامعة دمشق، ولم يكن لديَّ الوقت الكافي للتفرغ إلى كتابة الأحاديث، فابتسم رحمه الله ابتسامته العذبة المعهودة، وقال لي: أخي محمود أحس بما تشعر به، ولكنني لا أوافقك على الرأي في التخلي عن كتابة الحديث، وأقول لك بكل صراحة لقد راودتني فكرة التخلي كما تراودك حاليًا، ولكنني عدلت عنها لإيماني بأن الكلمة مسؤولية وأمانة، وأن ثمة خيرًا في المقالة الصحفية، وأننا في أحاديثنا الصباحية كما في ندواتنا التلفزية نؤدي رسالة، وإذا تخلينا عن واجب الأداء فهذا يعني أننا نسير في الطريق الخطأ، وأربأ بك أن تسير فيه. والحق أقول لقد كانت كلماته بلسمًا ناجعًا ودواء شافيًا لما كنت أكابده، وتابعت كتابة «حديث الصباح» في الجريدة.

وتكررت لقاءاتنا في مناسبات متعددة، يبث كل منا إلى أخيه شؤونه وشجونه، وشاركنا معًا في ندوات مجمع اللغة العربية بدمشق ومؤتمراته، وفي الندوات التي كانت تقيمها وزارة الثقافة لتكريم بعض الأدباء الراحلين. ثم صدر القرار الجمهوري المتضمن تشكيل اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، وكان عضوًا فيها، وأُوكل إلى اللجنة وضعُ خطةِ عمل وطنية للتمكين ومتابعةُ التنفيذ على أن تَعقِد اللجنة اجتماعات دورية لهذه

الغاية، وتقدمَ تقاريرها الشهرية إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيّد رئيس الجمهورية راعيةِ هذا الحفل. واعتذر الأستاذ الدكتور الأشتر رحمه الله عن عدم تمكنه من حضور هذه الاجتماعات في دمشق لوضعه الصحي، فاقترحتُ باعتباري رئيسًا للجنة أن نرسل إليه التقاريرَ بوساطة الناسوخ (الفاكس) فيطلعَ عليها، ويزودَنا بملاحظاته وآرائه التي لا يمكن للجنة الاستغناءُ عنها بأي صورة من الصور، ووافقت السيدة نائب الرئيس على المقترح، وسارت الأمور على هذا النحو، فكنا – أعضاء اللجنة – ننتظر وصول النسائخ منه لنقرأها ونفيدَ منها في عملنا، إلا أنه حاول الاعتذار للمرة الثانية، وأرسل نسيخة إليَّ طالبًا رفعها إلى السيدة نائب رئيس الجمهورية، ويقول فيها: «وبعدُ فإني أجدني اليوم يا سيدتي، ونحن في الطريق إلى إتمام العام الثالث من عمر اللجنة- وأكون عندها بلغت الثمانين- مدعوًا إلى تسليم الأمانة، ليتاح تسميةُ البديل، شاكرًا للسيّد الرئيس ثقتَه الغاليةَ، ولك يا سيدتي أجملُ ما يحفظ الإنسان للإنسان من جمال الصلة وشكرِها أيضًا. أسأل الله حسن الخاتمة، وأن يهيئ للجنة من بعدُ سبل التوفيق فيما تتولى أمانته، وأن يلازمها فيه الإيمانُ بالحرص على رعاية أسس التمكين». إلا أن الاعتذار لم يقبل بسبب الحرص العميق على استمراريته في اللجنة مهما تكُ ظروفه بغية الإفادة من ملاحظاته وآرائه القيمة.

أيها الحفل الكريم

يقول شاعرنا العربي:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفي ضوء ذلك أشهد أن نفسَ فقيدنا كانت عاليةً وعاليةً جدًا، فإذا ذكر سمو النفس ذكر فقيدنا الغالي، وإذا ذكر التهذيب الجم ذكر فقيدنا الغالي، ولقد لمستم هذا التهذيب في الرسالة السابقة، وتلمسونه في جميع جوانب حياته، فها هو ذا يرسل رسالة إلى أمينة سر لجنة التمكين يستهلها قائلًا: ابنتي الفاضلة الآنسة ريام: صباح الخير، أكون شاكرًا لو تكرمت

بنقل شكري العميق للسيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيد رئيس الجمهورية على دعوتيها الكريمتين الغاليتين وعجزي عن تلبيتهما، ودمت لكل جميل طيّب».

وما من رسالة أرسلها إلى اللجنة إلا ويحيي أعضاءها ويشكرُهم ويدعو لهم بالخير والتوفيق، وما من كتاب ألفَّه إلا وأرسل إليَّ نسخة منه هدية وقد توّج الإهداء بعبارات المودة والتحية والذكرى الطيبة.

تلك هي بعض سمات فقيدنا الراحل، ومع أننا نستخدم كلمة «راحل» إلا أنه حيٌّ في العقول والنفوس والضمائر كما أن الخالدين لا يموتون، إنهم يبدؤون خلودهم ساعة يقال إنهم ماتوا، ذلك أنهم أصبحوا بالذي خلّفوا من أثر، وأبدعوا من أدب جزءًا منا ومن تاريخنا وإرثنا، ألم يقل شاعرنا العربي:

موت النقي حياة لا نفاد لها قد مات قوم وهم في الناس أحياءُ

ولله در أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

المجد والشرف الرفيع صحيفةٌ جعلت لها الأخلاقُ كالعنوان

وجدانك الحيُّ المقيمُ على المدى ولربّ حيٍّ ميّتِ الوجدان

ولقد تجلّى هذا الوجدان الحيّ المقيم على المدى في جوانب حياة فقيدنا كلها، وإذا كان شاعرنا العربي يقول:

قد عرفناك باختيارك مُذ كا ن دليلًا على اللبيب اختياره

فإننا سنأخذ مثالًا على مشاعره الإنسانية المرهفة من اختياره مواقف إنسانية في الشعر والحياة معًا، وها هو ذا يتخيّر ثلاث قصائد لشعراء شاعت على ألسنة الناس قصيدة واحدة من شعرهم طغت على ما قالوه جميعًا. ومن أصحاب الواحدة أي القصيدة الواحدة التي شاعت على الألسنة دون غيرها الشاعرُ الإربلي البحراني في قصيدته الهائية على أنها مثال للفجيعة بالإنسان:

ربّ دار بالغضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها

كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاها!

ومن أصحاب الواحدة الشاعر العراقي ابن زُريق البغدادي، وقد تخيّر قصيدته الهائية أيضًا على أنها مثال للفجيعة بالحياة، إذ يصور فيها تجربة الغربة والحنين، وهي في معنى من معانيها تحمل الخيبة التي تتعدد صورها في حياة الناس، ويقول فيها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في لومه حدًا أضرَّ به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلًا من عنفه فهو مضنى القلب موجعه

ومن أصحاب الواحدة الشاعرُ الأندلسيُ أبو البقاء الرندي، وقد تخيّر قصيدته:

لكلّ شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرَّ بطيب العيش إنسان

على أنها مثال على الفجيعة بالوطن عندما تفككت ممالكُ الأندلس وسقطت معظم حواضرها بلنسية، مُرسية، قرطبة، اشبيلية:

قواعد كنَّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركانُ

وينادي الشاعر فيها بأعلى صوته:

ألا نفوسٌ أبيّات لها همَمٌ أما على الخير أنصار وأعوان؟

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان!

وما اختيار فقيدِنا الغالي لكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وإعادةُ نشره بعد أن أعاد النظر فيه إلا لإيمانه بالمقاومة إذ يقول: إن غاية ما أبتغيه من نشر الكتاب مرة أخرى في طبعته الكاملة هذه بعد أن أعدت النظر فيه إعادة شاملة، أن تقع الإفادة منه في هذه الأيام الحرجة التي نواجه فيها غزوًا استيطانيًا جديدًا يذكّر بغزو الإفرنج أيام حروب الفرنجة في

عصر أسامة، فيعين في نشر نصوصه على تقويةِ روح المقاومة في نفوس الناس على أنها الطريق إلى عزة الأمة، وبثِّ الثقة والاعتبارِ بما نجم لنا تحقيقُه تلك الأيام واستخلاصِ الدروس منها، فالكتاب في جملته يعد فوق مزاياه الفنية وثيقة حية قل نظيرها في رصد إحساسنا بالتفوق الحضاري العام في القرون الوسطى».

وكان يرى أن في الاطلاع على كتب الرحلة في القديم والحديث ثقافةً متصلة بالعصر الذي نحن فيه، لم يصغها الفكر وحده، بل صاغتها النفس المنفعلة بمجموعها حِسا وفكرًا ووجدانًا وحركة حية، فهذه تجارب تاريخية إنسانية لم يبدعها الخيال، ولكن صاغتها حقائق المشاهدة والانفعال الحيّ فيها.

وفي وقفاته النقدية الأدبية على أعمال بعض النقاد العرب المعاصرين من أمثال الدكتور أحمد كمال زكي، والدكتور محمد زكي العشماوي، ورجاء النقاش، والدكتور عبد الملك مرتاض، كان يرى أن في هذه الوقفات تقريبًا للقارئ العربي وطلاب الجامعات بخاصة من مذاهب الفكر والفن وأعلامها في الغرب، وما يشكو منه إنسان العصر من غلبة المادة على الروح ومن الغربة وضعف الإيمان بالخالق والتمرد عليه وشيوعِ النزوع إلى العبثية وافتقادِ الأمن.

ويحسن بنا في هذه المناسبة أن نطلع على جانب من درر أفكاره النيّرة في قضايانا الثقافية لنتبين رجاحةَ الرأي وسدادَه بعد أن تعرفنا رهافةَ الحس ويقظةَ الوجدان.

أما آراؤه التربوية فقد اتسمت بالحكمة ومواكبة الاتجاهات التربوية الحديثة فهاهو ذا يقول: إن رسالتنا الجامعية الحقيقية هي في تكوينِ الفرد وتنميةِ شخصيته الفكرية وإيقاظِ وعيه ودفعهِ إلى اقتحام المجهول، والكشفِ عن الآفاق المعرفية الجديدة وإبداعِ الحلول للمشكلات الماثلة فيها. ونحن في جامعاتنا العربية نتوجه أكثر ما نتوجه إلى خطاب الذاكرة لا إلى خطاب العقل، ونرمي إلى تحفيظ الحقائق لا إلى تركيبها أو إبداعها.

إن جوهر العمل التربوي هو تنشيط الحركة الذهنية. ولقد علمتني الحياة أن أغنى الغنى غنى النفس، وأخصبَ الخصب خصبُ التكوين ومواتاةُ الطبع، وعلمتني أن أساس النجاح في عملنا التربوي يقوم على تقليص المسافة بيننا وبين الطالب، فبغير الإحساس بعمق الصلة بيننا وبينه، صلةِ الود والتقدير المتبادل، تصبح العملية التربوية جافة، ويغيب فيها الجانب الإنساني الحي».

وجميل جدًا موقفه من التراث والمعاصرة، فقد دعا رحمه الله إلى فهم التراث وفحصه والإفادة من كنوزه المعرفية والجمالية في خدمة الحاضر، فالتراث كما يرى في كتابه «فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية» صخرة مكينة يمكن أن نجعلها عقبة في الطريق إلى المستقبل، ويمكن أن نبني عليها بيتنا الحديث: والمطلوب أن نكون أمناء وأحرارًا في وقت واحد، أمناء على التراث نحفظه ونفهمه ونقدره ونغار عليه، ولا ننقطع عنه، وأحرارًا لا نتعبده ولا ننقطع إليه.

ولكم يذكرني موقفه هذا من التراث بموقف أستاذه وأستاذي الدكتور المجمعي أمجد الطرابلسي رحمه الله إذ يقول: «السلف لا ريب موضع احترامنا وآثارهم موضع اعتزازنا، وويل لأمة لا تطبع أبناءها على هذا الاحترام، ولا تعوّدهم هذا الاعتزاز، ولكن احترامنا السلف يجب أن يكون احترام الأحرار، واعتزازنا بآثارهم يجب أن يكون اعتزاز الأعزة، فإذا انقلب الاحترام تعفيرًا للجباه، أو غدا الاعتزاز جثوًا على الركب كان الشلل فالجمود فالموت».

أما الحداثة في نظره فهي المعاصرة، وهي قبول العصر والتفاعل معه، والقدرة على اختيارِ طريقنا منه والدخولِ بأنفسنا وتسجيلِ هويتنا الحضارية فيه، وهي ما لا يستطيعه الغرباء عن العصر والمنقطعون عنه إلى الماضي، ولا الغرباء عن أنفسهم الذين انقطعوا عن أصولهم، فهم جميعًا غرباء يقفون على خط واحد، وإن وقفوا في طرفين متقابلين.

أما موقفه من العولمة فيتمثل في قوله: «علينا ألا نقصّر في دراسة منجزات العصر في كل الميادين، وألا نقصّر في تعلم اللغات التي تدنينا منها، والانفتاحِ على حقائق المعرفة الإنسانية في العلوم كافة، ودراسةِ ما نملكه في ضوئها وتقويمِه في غير تعبد ولا تصلب ولا خوف ولا إحساس بالنقص، فالمعرفة حق لكل البشر إذا استطاعوا امتلاكها، ثم إن الحضارات الضعيفة حين تنغلق على نفسها، وتجتر ثقافتها الخاصة، وتقيم من حولها الأسوار بدعوى الحفاظ على نفسها تؤتى من مأمنها ويقتلها ضعفها، وليس من بديل أمامها إلا أن تغرِسَ أقدامها في تربة ثقافتها، وتفتح منافذها لرياح الثقافات الأخرى».

أيها الحفل الكريم

إذا كنا قدمنا باقة من اختياراته في تسليط الأضواء على بعض المواقف الإنسانية والفكرية فحري بنا أن نقدم باقة من آرائه العملية في مجال التمكين للغة العربية مادامت الكلمة هي كلمة لجنة التمكين.

لقد كان فقيدنا متألمًا أشد الألم من واقع الحال اللغوي في أقطارنا العربية ولطالما شكا من سوء هذا الواقع، فلنستمع إليه يقول: «إن الأمة تعاني في أقطارها المختلفة من زحف العاميات مفردات وأنساقًا على التعبير الشفهي والكتابي في مراكز الحياة الإدارية والوظيفية وصولًا إلى الخطاب نفسه، حتى أصبحنا نشهد اليوم من طغيان العاميات في أجهزة الإعلام المرئي والمسموع ما أخذ الناس والمسؤولون في المؤسسات الثقافية قاطبة يألفونه ويستطيبونه وينامون عنه، وأصبحنا نسمع على اختلاف مراتبهم واختصاصاتهم من يدعو إلى هجر التقعيد النحوي والصرفي، ثم إلى استبدال العامية بالفصيحة في الحياة العامة وفي النتاج الأدبي والثقافي والإبداعي على حدٍ سواء!

إن ما وصلت إليه الحال في الساحة اللغوية (وهي الساحة التي نبني فيها انتماءنا الصريح، ونخط هويتنا الفكرية ومشروعنا الحضاري العام، وندخل على المستقبل الذي نريده من أبوابه كلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية) لا يبشر بالخير أبدًا.

بل ينذر بشر ما نحن فيه: انحلال الروابط، وتجزئة الأرض، وضياع الإنسان وعزله، والانجراف المرسوم في تيار العولمة بمفهومها القائم الذي يعني السيطرة على الاقتصادات الضعيفة وطيَّ ثقافات أهلها لصالح الاقتصادات القوية وثقافاتها المتقدمة».

وبعد رصد هذا الواقع يقول بكل صراحة وشفافية وشعور عالٍ بالمسؤولية: «يؤلمني أن يصل بي التفكير في الهم اللغوي إلى الإحساس بعجزنا عن حمله في ساحتنا الوطنية وحدها، على حين تبقى معظم الساحات العربية بعيدة عنه على أقدار نسبية، فالغِناء خارج السرب يبقى صعبًا، ويصل بنا أحيانًا إلى الحزن، إذ يقود إلى التساؤل عن قدر الانتفاع بما نحن في صدده».

ومع ذلك يرى أن جدار الخلاص يتمثل في اللغة العربية الواحدة، وحدة الأمة ووحدة تراثها، صوت ضميرها العميق المنبعث من أعماق التاريخ وخشبة الصلب والموت في وقت واحد.

ومن آرائه ومقترحاته العملية في مجال تمكين اللغة العربية والتي زوّد لجنة التمكين بها تكليفُ متخصصين وضعَ معجم صغير تفصّح فيه أكثر المفردات والتراكيب ورودًا في المحكية العامية السورية ليكون في الأيدي تعود إليه اللجنة في توجهها، ووضعَ كتاب صغير تجمع فيه أهم قواعد الكتابة السليمة نحوًا وإملاءً، وتتولى توزيعه على الدوائر والمؤسسات، ووضعَ آلية للتدقيق اللغوي في مؤسسات الدولة قاطبة، واختيارَ العناصر الصالحة لتأدية هذا الواجب، إذ إن أكثرهم لا يحمل غير الشهادة الثانوية في أغلب الأحوال، ويرى أن يلجأ إلى زرع المدققين اللغويين في لغة البث في أجهزة الإعلام كلها لرصد الأخطاء وتنبيه المذيعين عليها، وألا يكتفى بإقامة الدورات التدريبية. وفي مجال الإعلام أيضًا اقترح أن توكل إلى بعض العاملين القادرين في مجال الإعلام كتابةُ برامج عملية خفيفة وجذابة تستعين بالحوار والحكاية والمشاهد التمثيلية السريعة لبلوغ هذه

الغاية، فإذا بلغ البرنامج من النجاح ما يجعل وسائل الإعلام العربية الأخرى تحذو حذوها وتقتدي بها، فيقع الإشعاع بها في الطرفين.

وفي الاحتفال بيوم اللغة الأم في الحادي والعشرين من شباط اقترح إقامة موازنة بين النهوض بالعبرية الميتة حتى نهايات القرن الماضي، والرقي بها إلى درجة استيعابها للمنجز العلمي المتطور وإنتاجه، وبين العربية في مؤسسات التعليم العالي في الساحة العربية قاطبة، وقد سموا جامعتهم الجامعةَ العبرية لا الجامعة الإسرائيلية لإدراكهم مكان اللغة من سعيهم إلى طوائفهم في أنحاء العالم القديم والحديث.

وفي مجال التحرر من الأمية دعا إلى إنشاء مراكز لا مدارس لتحرير كثير من الشباب (ذكورًا وإناثًا) من ربقة الأمية في الأرياف بخاصة، فإن ما رآه من أعدادهم في حلب كما يقول يسد البصر! وقد أنهى بعضهم خدمة العلم، وغادرها على الحال نفسها! على حد تعبيره.

أما مقترحاته في مجال القراءة فقد تجلت في تخصيص بعض الأركان في المقاهي ودور الترويح والأماكن التي يرتادها الناس على اختلاف مقاصدها، تعرض فيها، فضلًا على الصحف والمجلات، كتب جذابة خفيفة تغري الرواد باقتنائها لهم أولًا ولأولادهم في البيت. وإن إقامة مكتبات صغيرة في البيوت تجمع فيها الكتب في مدار الأيام، ويعين الرجوعُ إليها على تقوية الحافز، وغرسِ عادة القراءة في أفراد الأسرة صغارًا وكبارًا خطوةٌ أصبحت ضرورية في عصر التلفاز والحاسوب والشابكة، والانصراف منها عن القراءة الورقية التي هي الأساس دائمًا لكل ما ننوي النهوض به.

ولعلَّ من أكثر المقترحات التي ركز عليها مقترَحه: الجدية، الجدية، الجدية، والتقليل من الكلام والتنظير، مع الكثير من الفعل، هما الدواء الشافي لمجتمع مسترخ لا تصلح فيه التعميمات والتنظيرات مهما تفننا فيها.

وبعد أن قدم فقيدنا الراحل باقة من المقترحات العملية للنهوض باللغة العربية يقول: «أتمنى أن يكون محصول الجُهد الذي تبذله اللجنة على مختلف الصعد مرضيًا فإن العبرة دائمًا بالنتائج، وللنتائج مقدمات، والمقدمات تقتضي أن تكتسب قرارات اللجنة صفة الإلزام».

أيها الحفل الكريم

كان فقيدنا يتسم برهافة الحس ويقظة الوجدان ورجاحة العقل، يزين ذلك كله مشاعر إنسانية نبيلة افتقدناها في عصر انحسرت منه القيم المعنوية واجتاحته قيم الاستهلاك، وسادت فيه المصالح حتى بات ينطبق عليه قول شاعرنا العربي:

حياك من لم تكن ترجو تحيته لولا المصالح ما حياك إنسان

في عصر تلك هي سماته كان فقيدنا الكبير ينأى بنفسه عن مواضع التهم ويشمخ بمثله وقيمه في عالم الحق والخير والجمال، فكان الاتزان في سلوكه فكرًا ونزوعًا وأداءً يتجلى في جميع المواقع التي عمل فيها، وكان الألق في منظومة المناقب التي يتحلى بها عفة ونبلًا وكرامةً وأناةً.

وسيبقى اسم فقيدنا الغالي ماثلًا في العقول والقلوب لأنه كان بارًا بتنوير العقول والبصائر، وعاملًا على إشاعة الحب في القلوب ببيانٍ عذبٍ، وأسلوب رشيق، تزينه عواطف إنسانية نبيلة، ومشاعر وجدانية رقيقة.

رحم الله فقيدنا الكبير الرحمة الواسعة سعة ما أعطاه لأمته من أفانين الثقافة الهادفة والملتزمة. وما أعظم ما أعطى! وما أفدح ما فقدناه برحيله! إلا أنّ عزاءنا برحيله الأبنية البشرية العالية والقوية التي بناها بنين وبنات فأحسن البنا علمًا وخلقًا ومناقب رفيعة (الدكتور محمد، والدكتور أحمد، والدكتورة سحر، والدكتورة عبير، والدكتورة رحاب: حفظهم الله جميعًا). وعزاؤنا برحيله المؤلفات القيمة التي أبدعها يراعه فأضحت منهلًا

عذبًا لرواد العلم وناشدي الثقافة. وعزاؤنا برحيله السيرة العطرة التي خلَّفها وراءه:

يضوع عبير المسك إن ذُكر اسمُه فنذكره والطيب يعشقه القلبُ

وأخيرًا أتساءَل قائلًا:

مَنْ للفصاحةِ بعد فقدِ الأشتر مَنْ للفضيلة والسماحة والتقى؟

قلبي يشارككم عظيم مصابكم في مؤمنٍ نحو الجنان قد ارتقى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة أصدقاء الفقيد

ألقاها الأستاذ الدكتور مازن المبارك

عضو مجمع اللغة العربية

باسم الحي القيوم الذي لا يموت، والذي قضى على عباده بالموت، وجعل كل إنسان إلى انتهاء وكل عمر إلى انقضاء.

وجعل موت الأحباب امتحانًا لما في الصدور، وجعل إخواننا وهم من أهل القبور أوعظ لنا نحن معاشر الغافلين واللاهين مما كانوا في حياتهم .

أخي عبد الكريم

ما كان أسعدني بك حين رشحتك عضو شرف في مجمع اللغة العربية فكان إجماع الإخوة الزملاء هو الجواب. وكنت على عزم إعداد كلمة أستقبلك بها عضوًا في المجمع ففتّني ومضيت وجعلت اللقاء فراقًا والاستقبال وداعًا.

وإني وإن قُدْمتَ قبلي لعالم بأني وإنْ أبطأت منك قريب

وإن صباحًا نلتقي في مسائه صباح إلى نفسي الغداة حبيب

ولكل حدث عندنا حيلة نلتقيه بها، وما حيلتنا مع مصيبة الفقد إلا الصبر. ولكن كلما عظم الرُّزْء وجلّت المصيبة قلّ العوض وضعف الصبر والجلد وضاق الصدر... كلما مضى قبلك الأصحاب عظم المصاب، لأنك بقيت وحدك تنتظر أن يفتح لك الباب لتلحق بالأحباب الذين ابتلعهم الغياب... لقد كنا ثلاثة التقينا وتعارفنا على باب دار المعلمين العليا بجامعة دمشق عام ١٩٤٨ عاصم البيطار وعبد الكريم الأشتر ومازن المبارك، كنا لا نفترق إلا لنلتقي، وما كان لنا من فراق إلا على أمل اللقاء... وتوجّه نحونا القضاء وسدّد

إلينا سهم الفناء ففرقنا وشتت شملنا.. وأبقاني وحيدًا لا رجاء لي في اللقاء... فلا أقل من أن أقول فيمن مضى كلمة وفاء.

جمعتني بالدكتور عبد الكريم الأشتر أيام دراسة في الجامعة، بل جمعنا مقعد واحد أربع سنوات، وجمعتنا سنوات الدراسات العليا في القاهرة، وجمعتنا زمالة تدريسية في جامعة دمشق... بل قل لقد جمعتنا الحياة في الحلّ والترحال، في الإقامة وفي السفر، في الشدّة والرخاء. وكنا ثلاثة إخوة عاصم وعبد الكريم ومازن، خرجنا من رحم واحدة هي رحم الأخوَّة والمودّة، ما عرفنا غيرها صلة ارتفعت بنا عن سفاسف الحياة، وعشنا ساعات صفاء ونقاء ومودة وإخاء، كان الدكتور عبد الكريم فيها بيننا الرجل الإنسانيَّ النزعة، اللطيف العشْرة، الصادق الألفة، البعيد كل البعد عن التكلف أو التصنع...

وكان – رحمه الله – إذا سمع من أحدنا كلمة لا تعجبه مرّ كأنْ لم يسمعها، وإذا رأى منّا شيئًا لا يعجبه أغضى كأن لم يره. كنا نراه أديبًا بالطبع والفطرة، فنترك له قراءة النصوص بنثرها وشعرها فيقرأ كل كلمة بمعناها وكل حالة بمقتضاها لهجة وحركة...

لقد كانت له صفاته في الخلق والسلوك وفي التربية والتعليم وفي الثقافة بسعتها وشمولها، مما جعل طلابه يعشقون درسه، ويلتفون حوله بحبّ وتقدير وإعجاب... ولقد ترك في نفوس طلابه وقرّائه أثرًا باقيًا محبَّبًا يذكرونه به كلما ذكر، ويثنون على ما وجهَّهم إليه ونبهّهم عليه من أدب الدرس والنفس... وكان على هدوء طبعه وخفض صوته وطول نظرته لا يكتم غضبه إذا غضب، ولا يطوي رأيه إذا نقد، بل يصرح ويعلن وينشر ويخوض معارك الرأي بلسانه وقلمه، وكانت له في ميدان نقد التحقيق والتأليف صولات وجولات تذكر بعضها صحافة العراق، وتذكر بعضها الآخر صفحات في صحف الإمارات...

لقد مرّت بالدكتور عبد الكريم أحداث كثيرة في الشام ومصر والجزائر والإمارات، رأى فيها الحياة بحلوها ومرّها، وعاشر فيها من الأدباء والأعلام من بقي يذكرهم حتى آخر

حياته بالحب والوفاء، كالدكتور محمد مندور والدكتور إسحاق موسى الحسيني... وكنت أرى فيه الرجل الذي يستخلص من أحداث الحياة دروسها، وكثيرًا ما كان يعبّر عما انتهى إليه من حكَم في حياته كأن يقول: أغنى الرجال أقنعهم. ويقول: أرقى أخلاق الرجل أن يكون صادقًا مع نفسه وصادقًا مع الناس.

وكنت أرى فيه الغيرة على أمرين اثنين طالما صرح برأيه فيهما، أما الأمر الأول فكرهه للصّحبة (للشُّلَل) القائمة على التجمع والتعصب لرأي أو نزعة أو فكر، تلك التي لا يرى أفرادها بعضهم في بعض إلاّ الإحسان والجودة والتفوق! ويعميهم تعصبهم عن رؤية الحقيقة في أدب أو شعر أو نقد.. وأما الأمر الثاني فغيرته على اللغة العربية ودفاعه عنها.

وبعد فإن حياة غنيّة عريضة عشناها معًا ستين سنة لا يمكن أن يفيها حقَّها حديث ينقضي بدقائق فما سجّلته السنوات لا تستعيد ذكرياته الدقائق.

وما وعته العقول وانطوت عليه النفوس وعاش مع خفق القلوب تعجِز عن التعبير عنه الألسن والأقلام.

والدكتور عبد الكريم الأشتر أكبر من أن تُجمع صفاته في صفحات، أو تقوى على جمع فضائله وشمائله الكلمات، وإن الألم لفقده لا ينتهي.

وما رأيت داءً أقتل للأحياء من موت الأصدقاء، إنه الموت الذي لا يقتل مَن يُميته قَتْلَهُ لأخيه ومُحبه.. إنه ينـزل بمن يميتهم فيريحهم من دنياهم ولكنه ينزل بإخوانهم قاتلًا يَقتل ولا يُميت، يقيم ويقعد، يزلزل الأركان ويهّد الضلوع ويُسيل الدموع ويملأ النفس هما وغما.

إنه يستبدلهم بالحبيب الذي قضى فراغًا لا يمتلئ، وحزنًا لا ينقضي وشوقًا لا ينتهي!

ولعل من أشد الناس مصيبة وأكثرهم إحساسًا بألم الفقد من كان أكثرهم صلة بالفقيد وأطولهم عيشًا معه وأغناهم ذكريات جامعة.

وإن من أفدح الناس رُزءًا وأشد الأخبار وقعًا وسوءًا من كان ينتظر لقاءك ليسعد بالترحيب بك فيشقى بنعيك ويأسى بوداعك.

وإني متى لم ألزم الصبر طائعًا فلا بدّ منه مُكرهًا غير طائع

وعلى ما في القلب من جروح وما في النفس من ألم الفقد، لا نقول إلا ما يرضي ربَّنا، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أحسن الله عزاءنا وعزاء أهلك وأولادك فيك، وأحسن مثواك عنده، وقضى لنا ولك بالرحمة والغفران.

كلمة طلاب الفقيد

ألقتها الأستاذة الدكتورة ماجدة حمود

((د.عبد الكريم الأشتر الأب والمعلم))

أحسست وأنا أقرأ قول جبران: (للرجل العظيم قلبان، قلب يتألم، وقلب يتأمل) كأنني أمام وصف يجسد أستاذي المرحوم د.الأشتر، فقد اجتمعت لديه الحساسية وعمق الرؤية! لذلك كان حديثه في قضايا الفكر والنقد حديث العقل والقلب معا، حتى أنه كان يرفض الكلمة التي لا تعرف نبض القلب، لهذا تميّز بتناول الهموم العامة وكأنها همه الخاص، فجاءت كلماته المكتوبة والمسموعة حارة مؤثرة، لذلك استطاع أن يجسّد لنا أثناء تدريسه صوت الأبوة الحانية وصوت المعلم المعطاء.

إننا قلما نجد إنسانًا مثله، في هذا الزمن، يدرك معنى الحياة في القيم والعلم لا في المال والمناصب، آله هم الوطن حتى فتك بقلبه، لا يمكن أن أنسى صوته الذي خنقته العبرات (أثناء تكريمه في اتحاد الكتاب العرب) وهو يتحدث عن خيبته في استرجاع فلسطين وإجهاض حلمه في تحقيق الوحدة العربية!

كم أفتقدك يا أستاذي وأبي الروحي! فقد جعلت التعليم رسالتك في الحياة، لهذا كنت تلقي المحاضرة بقلبك وعقلك معا، كي تربي النفوس والعقول!

لم ترَ في المناصب وزخرف الحياة سكينة لروحك، كانت الكتابة، التي لم تفصل فيها بين البحث العلمي والنفس الإنسانية، هي متعتك ورسالتك! لم أجدك يومًا تفصل الباحث عن الإنسان، كنت عزيز النفس، اكتفيت بحب طلابك وزملائك، فنشرت عطر المودة حيثما حللت، لهذا لم أجد إنسانا تحوطه القلوب، وتجله النفوس حيثما حلّ سواك!

فقد اجتمع حولك الطلاب من جميع الطوائف والأفكار، حتى إنني كنت أتساءل: كيف التقى في حبك الماركسي بالمتدين...

لقد علّمتنا كيف توحّد الشخصية المخلصة أبناء وطنها! بفضل ما تجسّده من قيم أصيلة في فعلها وقولها!

كنتَ مهموما بوحدة هذه الأمة، فسعيت عبر مؤلفاتك إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية (كتاب الملتقى) يشهد على ذلك كما سعيت إلى التقريب بين المسلمين والمسيحيين في كتاب (أوراق مهجرية) حين ذكرت إعجاب أدباء المهجر بسماحة الإسلام.

أحسست بالمسؤولية تجاه المال العام، لهذا كنت تضحي براحتك، فتجلس ساعات في بهو الفندق، تنتظر موعد السفر، كي لا تكلّف خزينة الدولة دفع أجرة يوم زائد! كنت تكتفي بترديد (سامحهم الله) وحين تستغرب أمرًا تردد (سبحان الله)، لم تشتك يوما من سوء المعاملة، أو الإهمال! كان قلبك النبيل متعوّدًا على تحمّل المرارة والخذلان، أعرف كم آلمتك الحياة، لم تبخل عليك بمصائبها، فواجهتها بالإيمان والعمل، والكثير من الصبر! وحين اجتمعت الأمراض عليك في أيامك الأخيرة لم تشتكِ، كنت تتحملها بصمت، كي لا تُحزن أحباءك!.

لم تكتف بمهنة التدريس، بل كانت الكتابة شغلك الشاغل، وقد أتاحت لك فترة التقاعد فسحة من الوقت، فأنتجت ما يعجز عنه الكثير من الباحثين! لتعلّمنا أن رجل العلم لا يتقاعد أبدًا!

أعرف أنه كان يحزّ في نفسك أنك لم تنصرف للأدب، فالدراسات الأكاديمية أخذت وقتك، ومنعتك من تحقيق حلمك الأدبي! لهذا أسعدني أن تنصرف إلى كتابة سيرتك الذاتية، أدهشتني رهافتك وحيويتك الأدبية في وصف شخصيات عايشتها، كما

أدهشتني حياتك الغنية في كفاحها من أجل العلم ورفعة الإنسان والوطن! كم أتمنى اليوم أن تجد هذه السيرة من ينشرها! كي تتعلم عل يدك الأجيال مثلما تعلّمنا!

التقت في كتبك الحداثة بالتراث، فقد كنت تلفت نظر طلابك وقرّائك إلى ضرورة الإفادة من كنوز الماضي المعرفية والجمالية، لتكون في خدمة الحاضر، فالتراث في رأيك، صخرة مكينة يمكن أن نجعلها عقبة في الطريق إلى المستقبل، ويمكن أن نبني عليها بيتنا الحديث، لهذا كنت تطالبنا أن نكون أمناء وأحرارا في وقت واحد، وأمناء على التراث نحفظه ونفهمه ونقدره ونغار عليه ولا ننقطع عنه، وأحرارا لا نتعبّده ولا ننقطع إليه.

لهذا كنت من أبرز المنافحين عن اللغة الفصيحة، التي رأيت أن لها وضعًا خاصًا، إذ تشكل رابطة تؤلف بين العرب في أي زمان وأي مكان، فدعوت للحفاظ على أصولها وسلامتها، وصححت الأخطاء التي يرتكبها الأدباء، والتي رأيتها جرحًا نازفًا في صدر الأدب، كما انتقدت أولئك الذين يستخدمون العامية في الحوار، كنت تدعو إلى استخدام لغة فصيحة سهلة تقترب من لغة الحياة دون أن تتورط بالعامية.

إن هذا الرأي لم يمنعك من الاهتمام بالأدب الشعبي، لذلك لم ترفض في كتابك (ألوان) دراسة المواويل الشرقاوية التي كتبت بالعامية.

لا يمكن أن أنسى كيف حوّلت المناسبة الخاصة بتكريمك في اتحاد الكتاب العرب إلى مناسبة عامة، توقفت عند واقعنا البائس وشرّحت همومنا الكثيرة التي ما زالت تنخر جسدنا، واقترحت بعض الحلول التي تسهم في معالجة الداء العضال الذي نعاني منه، أحسست أنني أمامي مثقف من نوع نادر ينسى ذاته في أشد لحظات تألقها! يعمل بحس عال من المسؤولية، لأن ضميره الحي يرافقه في كل لحظة! لن نستغرب أن يعلو في خطابك هذا صوت الهم العام، ويخفت صوت الذات، فقد أفلحت في توحيد وجعك الذاتي بوجع أمتك!

بينت لنا أن معنى الحياة يتجسد بالعمل، وأن كل ما حولنا يدعونا إلى بذل الجهد، فلو تأملنا حال اللغة العربية اليوم لوجدناها في حال لا تحسد عليها، لذلك دعوتنا إلى مقارنة حالها بحال لغة ميتة هي لغة الأعداء التي أحياها العمل حتى باتت لغة العلم، تترجم عنها المعرفة إلى لغات العالم، في حين نجد لغتنا العربية التي كانت لغة المعرفة لقرون طويلة على شفا هاوية، تتصاعد أصوات كثيرة من أجل نبذها واستخدام اللغة الإنكليزية مكانها!

ليس غريبًا ما تعانيه لغتنا من ضعف، في رأيك، فاللغة صورة عن أبنائها، لهذا دعوتنا إلى العمل من أجل إنقاذ الأمة من ضعفها، والإسهام في بناء جيل جديد مؤمن بأصالته ومنفتح على الحياة الحديثة! فالكل مسؤول عن هذا الضعف، ولن ينقذنا سوى تكريم العمل، كأنك أردت أن توقظ فينا حس المسؤولية الذي نخدّره في داخلنا، لنعيش حياة أكثر راحة، لا يهمنا إذا كانت أكثر هوانا! كانت كلماتك، تنزف ألمًا على ما نحن فيه! إنها كلمات من خبر الحياة بحلوها ومرها! مثلما خبر معانيها، فرأى روعتها تتجلى في القيم النبيلة التي لن تتحقق إلا بالعمل والتضحية!

قلت في نفسي: ليتنا نتعلم من أستاذنا اتساع الأفق، والسعي للتعلم من الصغير والكبير! لعل أكثر ما يؤثر في النفس هو سؤاله رأي تلامذته فيما يكتب!

ليتنا نتعلم من أستاذنا محاسبة الذات! وعدم تنزيهها عن الخطأ! فكثيرًا ما أسمعه يقول: قد أكون مخطئًا! أو كان عليّ أن أفعل كذا!

ليتنا نتعلم منك الإخلاص للعلم والعمل معًا، لهذا أحسست أن تفانيك في عملك مرآة تفانيك في علمك! ما أحوجنا إلى مثل هذا الإخلاص اليوم!!

لقد علمتنا يا أستاذي كيف تكون الكلمة صدقًا، وكيف يتحول الحرف إلى نبض يشع إخلاصًا ونورًا، فكنت ضمير أمة ومنارة علم! كم أرثي لهذا الجيل الذي يفتقد القدوة الصالحة بين أساتذته!

ترانا نستطيع أن نمتلك روح أستاذنا السمحة التي تعذر الآخرين، وتستوعب أخطاءهم سواء أكانوا مثقفين أم أناس عاديين!؟

علمتنا كيف يكون الإخلاص منهجًا للحياة! وكيف يكون انفتاحًا على كل جديد يطوّرنا ولا يذهب بأصالتنا!

هأنذي أحس باليتم للمرة الثانية في حياتي، فقدت قلبًا أبويًا، يحيطني برعايته وعلمه! أبحث الآن عن سند روحي فلا أجد! أفتقد نبرتك الأبوية تنصحني وتشجعني على العمل رغم كل الإحباطات! لكن عزائي يا أبي وأستاذي أن قيمك وتعاليمك ما زالت حية بيننا!

كلمة آل الراحل الأستاذ الدكتورعبد الكريم الأشتر

ألقاها ولده الدكتور محمد الأشتر

أيها السادة

في حضرة غيابه تضيق اللغة ويختنق الكلام.

وفي أنفسنا تتراكب القيم وتطوى الصحف وتتغيم الأحلام.

فحين يترجل فارس اللغة العربية، وقد ترجل، تهيم الكتابة وتنكس الأقلام.

فيا فارس العربية المترجل:

كيف أقول في حضرة غيابك وأنت من دانت له الريشة والدواة، وطوع بنانه غفت المعاني فانبسطت وتداورت وانكمشت كما أراد!.

كيف أخطب في حضرة غيابك ولطالما قلت أنت فصل الخطاب!

فأن أقول اليوم واجب لاأدعي حسن إتمامه ولا كمال إعداده وإن شرفت محاولًا، وسموت بالجلال الذي أحسه من حولي، ورجوت أن تسمعني، بعد أن كنت تسمع، وتغفر زلاّتي، ولطالما غفرت.

في مخيلتنا يقبع مكانك المعتاد، وتفتح مفكرتك الصغيرة، وتحترق لفائف تبغك، وترتشف قهوتك، وفي مخيلتنا تجالسنا رقيقًا رفيقًا، متجاوزًا كلَّ اللاءات، عابرًا كل حدود الاختلاف، لتجسر الهوة بين جيلين، فيصير اللقاء جماع أبوة وصداقة ومزيج طرفة ونصح جميل.

قرأتك تكتب عام سبعة وتسعين كلامًا أستعير منه الآن:

لو كنت شاعرًا:

لغزلت من خيوط الشمس وشاحًا لكتفيك

ولجعلت من فتور جفنيك فتور الغروب

وملأت حناجر الطيور من عذوبة ضحكاتك

فأصبح الكون يسطع من لألاء وجهك

وكحلته بالحاجبين

فما وجدت يا أبي كلامًا يليق بك خيرًا من كلامك، ولا صوغًا أدق من صوغك، واخترت أن أكمل من حيث انتهيت أنت، معتذرًا منك، فما يقف مثلي قائلًا بين يديك، معتذرًا لأكمل فأقول:

لو كنت شاعرًا:

لهمهمت كلامًا ضائعًا بين شفتين

وتذكرت كم حنوت ولطفت

كم أصبحتَ إذ أمسيت

نديمك ليلٌ وحبر وورق

ودفتر مشروع، وحمى كتاب

وعينان اثقلتا...بدمعٍ وأرق

وإغفاءةٍ وصحو ونصف نعاس

وجنون قِرطاس

يهدُّ المنكبين

لو كنت شاعرًا:

لرسمتك مطوي الظهر كقوس النشَّاب

صلب العزيمة كالوترْ

ونحتُّ ابتسامتك في غمرة الصِّعاب

لجينًا وقمرْ

ونثر ياسمين

ولانتحلت قسوتك حين تقسو

ولينك حين تلين

وزعمت أنك ملأت كأس الأبوة

حتى الشفتين

لو كنت شاعرًا:

لتذكرت قولك في طائرك الر ائعْ "رحمها الله"

يسبح في السموات العالية

تمسح بمنقارك منقارَه اللامعْ

ويقضي في قفصك دهرًا يبوحْ

تطيران.....

تجوبان الآفاق معًا، روحًا وروحْ

تستحضران لقيمات الأفراخِ الفتية

حتى ينمو الريشْ

وتخفق الأجنحة جناحين جناحين

لو كنت شاعرًا:

لتتبعت عينيك تطوفان حول أحفادك

مرات ومرات

طواف الحجيج في أداء المناسك

تغمرهم بلهفتك، تغشاهم برحمتك

تمسح الدموع فتكشف المسالك

وتغمز تستزيد حفيدًا.....حفيدين

لو كنت شاعرًا:

لشممت رائحة غبار الصحائف

تملأ مكانكَ، تشغل زمانكَ

تزاحم دخان التبغ في رئتيكْ

وتنسمت عبق القهوة في فنجانكَ

حلوةً....مغليةً

تراقص أبخرتها قلمك بين يديك

يحبو....يجري ويغفو بين الإصبعين

لو كنت شاعرًا:

لأحسست بالألم يخترق حشاك

في كل أزمات الوطنْ

يتلوى في الخاصرة

ينخر النخاعْ ينـدفع بركانًا

تخمده أنفاسك الحائرةْ

وشهدت كم حاصرتك حمر الخطوط

وسود الشروط

وأحكام نشر جائزة

وكم ضمنت بين المعاني

علَّهم يقرؤون

بين السطرين

لو كنت شاعرًا:

لأشعلت بغضك للزمن الرديء سراجًا

وصببت الزيت فيه إلى الأبدْ

ليجلوَ حرقة الكذب والمداورةْ

وقيح الاستحكام والاستكبار والمناورة

فتزأرَ الحناجر وتتجاسرَ القلوب

ويفرَّ المخرزُ من العينينْ

لو كنت شاعرًا:

لقلت كل هذا ولكني طبيبٌ

جلَّ ماأستطيع أن أنقل لكم بعضًا مهمًا مما كان يقول.

كان يقول:

- أكثر المخلوقات غربة عن نفسه: الإنسان.
- بعض الناس يقتله الذم وبعضهم يقتله المديح.
- الأحزان الثقيلة لاتحملها غير البسمات.
- قد يكون العقل أضعف قوى النفس أثرًا في حياة الإنسان.

وكان يقول:

- أليس غريبًا أن تكون الثروة فينا مصدرَ ضعف وهي في تاريخ الأمم كلّها مصدرُ قوة ؟

وأخيرًا كان يقول:

- إننا مسؤولون أمام أنفسنا قبل كل شيء.
- مسؤولون أمام التاريخ الذي كتبه لنا آباؤنا.
- مسؤولون أمام أجيالنا القادمة.
- أما التبعة أمام الله فمتروكه للضمير.

أيها السادة

قلة في الناس من تتغير الدنيا بعد رحيلهم وأجرؤ أن ازعمَ أنك، عبدَ الكريم الأشتر كنت واحدًا منهم، فإن هي جنةٌ وربْ، فهي لك وهو أرحم الراحمين.

وإلا ففيما تركت من شاردات الإبداع في فنون الأدب وفيما حفرت من أثر عميق في دروب الخلود بعض من سلوان.

أيها الموت ترفق فقد استودعناك الأبَ الرؤوف، والزوج الخليل، والصديقَ الأمين، والمعلمَ الناصح، والعربيَّ الغيور.

أيها الموت ترفق فبين ظهرانيك اليوم رجلٌ أحبَّ الحياة وعاين حلوَها ومرَّها، عركته فما انكفأ، وغازلته فما استطاب، غرس فينا فيما غرس ثقافة الانتصار، واقتلع منا ثقافة الهزيمة.

آمن بالخيال واطمأن أنه سيقود الأمة في النهاية وأن ما يكبل القلم يعجز عن تكبيل الفكر،وفي بعض صباحاته الأخيرة احتسى القهوة مع تباشير الخلاص.

ترفق به أيها الموت فلطالما ترفق، وأعنه فلطالما أعان، وأبلغه أننا هنا اليوم شاكرون، بفضله معترفون، وبدلالته سائرون.

ترفق به أيها الموت وأبلغه أن له في أعناقنا بيعة لا تنقضي حتى نلحق به، وحتى يحين اللحاق؛ سنبقى نعلن وبكل الفخار:

نعم إننا نحن أولاد عبد الكريم الأشتر.

أيها الحضور الكريم، عائلة الراحل وهي تحاول التعافي من جرح الخطب والتعالي على ألم المصاب لا تجد في حضوركم إلا عزاءً نتقبله، ولا في مشاركة الأساتذة الأجلاء إلا تكريمًا يستأهله ولا نستأهله.

فدمتم، أشكركم، والسلام عليكم.

كلمة الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية

في حفل تأبين الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر

بمديرية الثقافة بحلب بتاريخ ١٥/ ١١/ ٢٠١١

أيها السيدات والسادة

إنه لمن دواعي الحزن أن أعتلي هذا المنبر باسم مجمع اللغة العربية لأقدم التعازي بالدكتور عبد الكريم الأشتر، قامةً كبيرةً في عالم الأدب، فقدها مجمعنا. وقد أفاتَتنا وفاتُه فرصةَ استقباله أول عضو شرف انتخبه مجمعنا، استقبالًا كنا نُعدُّه فاتحةً لفعاليات مؤتمرنا السنوي العاشر.

لقد عرف جيلنا العديد من المحبين للغة العربية الذين أرادوا أن يخصّوها باهتمامهم، ناذرين أنفسهم لخدمتها، بحثًا وتدريسًا وإنتاجًا.

إلا أن قلةً منهم تمكنت من إبراز شخصية متميزة، طافت على معظم مجالات اللغة والأدب، قبل الوصول إلى التركيز على مجالٍ متفرّدٍ تُصَبُّ فيه الطاقات وتُستقصى الحقائق وتستخرج منه الأحكام.

والجيل الذي أعنيه هو ذلك الذي تخرج في الجامعة السورية في مطلع النصف الثاني من القرن الماضي، جيلٌ تجاوز مآسيَ الحرب العالمية ليواجه مستقبلًا واعدًا، تخيّم عليه رايات القومية العربية، مؤكدةً موقع اللغة العربية لغةً حيةً مفتوحةً على جميع ما يتطلبه الغد. إنه موقعٌ تَرسَّخ على ما أثبتته سورية عن صلوح اللغة العربية حاملًا لمختلف العلوم والثقافات، بعد أن تأكد نجاح تدريس الطب ومختلف المواد العلمية باللغة العربية، ذلك النجاح الذي أضحى تحديًا لما أبدته الجامعات العربية الأخرى من المخاوف تبريرًا لعزوفها عن اعتماد العربية واسطةً مثلى لإيصال المعرفة إلى أذهان أبنائها.

لقد عشنا في تلك الأيام جوًا جامعيًا واسع الآفاق، إذ كان طلاب كلية الآداب التي فتحت أبوابها عام ١٩٤٧، كثيري الاهتمام بما يدور في الكليات العلمية، خاصة لأن كُلِّيَّتهم كانت تشتمل على فروع لمعظم العلوم الإنسانية مع بقاء محورها الأساس محورَ علوم اللغة العربية، فكانوا يلتقون بطلاب كلية الطب، ولكني لم أحظَ بالتعرف بفقيدنا حينذاك، بل عرفت أخاه صالحًا، وقد كان متميزًا بمزيج من الحيوية والجدّية، حسنَ الرفقة، صريحَ العبارة.

وكانت المجالات مفتوحة أمام الدكتور عبد الكريم حين تخرجه ليجول في حقول الأدب العربي قديمه وحديثه، متنقلًا بين الأنواع الأدبية المختلفة، من الشعر إلى الرواية، إلى المقال، إلى السيرة، وحتى إلى المسرح الذي ظهرت بداياته في تلك الأيام، إلا أن مجال النقد الأدبي هو الذي استهواه.

وهذا ما دفعه إلى اختيار دراسة مجموعةٍ أولى من شعر شاعر آل البيت دعبل بن علي الخزاعي موضوعًا لرسالة التخرج في كلية الآداب، وذلك بإشراف الدكتور إبراهيم الكيلاني. وكذلك فقد تكرر إصراره على النقد الأدبي حين اختار موضوع «فنون النثر المهجري» عنوانًا للبحث المطلوب لنيل شهادة الماجستير، في معهد الدراسات العربية في القاهرة بإشراف الدكتور محمد مندور.

ثم عاد إلى النقد الأدبي في مشروعه للدكتوراه في جامعة عين شمس ونال الشهادة عام ١٩٦٢ بدرجة الشرف الأولى بإشراف الدكتور مهدي علاّم وموضوعها نقدٌ لمجموعة شعرية لدعبل بن علي الخزاعي.

إن اختياره لموضوعات البحوث المطلوبة في مساره الدراسي، هو تأكيدٌ لما كان يتمتع به من مقدرة فكرية تسمح له بالولوج إلى ذلك الفن الرفيع، فن النقد الأدبي، بما يتطلبه من معارفَ وخلفيةٍ ثقافية وذوق فني.

وإنّ نظرة سريعة إلى المنهج الذي اتبعه الدكتور الأشتر في دراسةٍ لاحقة لمجموعات أربع من شعر دعبل، تعطي فكرة عن الدقة التي التزمها في أعماله النقدية الأخرى. فهو يميّز في تلك الدراسة بين شعر ينسب إلى دعبل ولم ينسب إلى غيره، وشعر تحققت نسبته إلى دعبل، ثم ينظر فيما اختلفت المصادر في نسبته إليه وأعجزه الفصلُ فيه، حتى يصل إلى ما نُسب خطأ إلى دعبل وتَمكّن من إعادته إلى أصحابه.

إن هذه الاستنتاجات التصنيفية التي استقاها من دراسته لأربع مجموعات محققةٍ ومنشورة لأربعة محققين مختلفين، تشير بدقتها إلى جهودٍ كبيرة تتضمن المراجعات، والتحقيقات، وتوضيحًا للتقاطعات، ليصل الناقد إلى تصحيح ما وقع في تلك النصوص من أخطاء، وتبيان ما فيها من آراء متضاربة، ليتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها، ومن ثمّ إصدار أحكامه النقدية.

أيها السيدات والسادة

لسنا في مجال الدخول إلى متاهات ما يكابده الناقد في مواجهة النصوص المجتزأة المبتورة، أو الممزَّقة على نصوص متعددة، وهذا ما يُلزمُهُ ترجيحَ روايةٍ على رواية أخرى، وإعادةَ الأبيات المكسورة إلى أوزانها، بل إن ما يهمنا هو تأكيد ما يجب أن يَتّسم به المُرتكز الفكري للناقد، إذ لابد له من اعتماد تكوينٍ ثقافي متين، يُضاف إلى تكوينه المفطور، وإلى حساسيةٍ فنية مرهفة. ذلك أن النقد يتطلب عمقًا ثقافيًا من مقوماته التزوّد بزاد لغوي ثقافي متصلٍ بالتاريخ، وبعلوم الحديث والتفسير والتأويل، وكلُّها تضاف إلى مُدركات العصر الثقافية الجديدة، ليصل الناقد إلى معاصَرةٍ تعتمد وضوحَ المنهجيات التراثية، فجميعها أسسٌ تسهّل دخول المتلقّي إلى عالم النص، لاستكناه حقائقه الداخلية.

وهنا تبرز براعة الناقد كما يصفها الدكتور الأشتر في كتابه «مراجعات نقدية بين القديم والحديث» بأن عليه «توضيحُ موقفه من العلاقة الجدلية بين اللفظ والمعنى، واختيارُ الألفاظ

الموافقة للمعاني في السياقات المختلفة، وطُرُقِ المجاز في الوحَدات المركبة ودقّة اختيارها، وقدْرِ الإفادة منها في إغناء الدلالات وتلوينها»[1] اهـ.

وهو يرى ضرورةَ انصهار الآفاق بين الماضي والحاضر، للوصول إلى النظرية النقدية التي تفي بحاجات اليوم، معتمدين تراثَنا اللغوي مصدرًا للإلهام. ولهذا فقد أبدى إعجابَه وتقديره لما قام به الدكتور مصطفى ناصف في التأليف بين القديم والجديد، والجمعِ بين مصادر ثقافته القومية ومصادر الثقافة الغربية.

إلا أن فقيدنا قد أضاف إلى هذه المنطلقات التقليدية انضواءَه تحت لواء أستاذه في معهد الدراسات الدكتور محمد مندور، أستاذ النقد الذي كان يعتمد المنهج التأثّري المعلَّل، ذلك المنهجَ الذي جعله الدكتور الأشتر منطلقًا لتدريسه الجامعي الذي أقامه على «تحليلِ النصوص واستخراج الخصائص منها بما يقرّب النص من المفهومات والأحكام المشتركة بين الناس»، وهذا مسارٌ يتجلى في دراسته للقصة التاريخية (شجرة الدر) لسعيد العريان، ولمسرحية عزيز أباظة الشعرية (غروب الأندلس) عام ١٩٦٥.

ولعل نقدَه لشعر وسيرة الشاعر الخليفة الأموي الوليد بن يزيد[2] يبرز ما يتميز به منهجه النقدي، من نظرةٍ تتجاوز المسائل النقدية، ومذاهبَها المسيطرةَ اليوم على الساحة النقدية العربية والعالمية، كالبنيوية والأسلوبية والتفكيكية، ليصلَ إلى مواقفَ ذوقيةٍ تستقصي أعماق الإحساس بالحياة، وتجلياتها في المفردات والصور والصياغات والأبنية الأدبية.

فبعد أن استنكر ما أحاط بشخصية الوليد بن يزيد من تُهم فيها «ما لا يقبله العقل ولا المنطق، ولا تقبله حقائق الحياة الجارية من حوله» نراه يصل «إلى تفسير تلك النفس القلقة،

---

(١) مراجعات نقدية ص٦.

(٢) انظر شعراء شاميون قدامى ومحدثون الدكتور عبد الكريم الأشتر وزارة الثقافة ٢٠٠٨.

التي تُعاني من الإحساس بعطشٍ مجهولٍ تبحث عن رِيِّه» وهو يراها تتطلع إلى تجديد إحساسها بالأشياء دافعًا لشاعرية حقيقية، تتجاوز ما تُلزمه الخلافة من وقار وتقاليد.

وهو يعتبر ذلك الشاعر الأموي نموذجًا إنسانيًا لا يمكن أن تُفهم أخباره ودلالاتها، ومقطوعاتُه الشعرية، بعيدًا عن الاستعانة باستعراض حقائقها النفسية، وهو يُرجع ما التَبَسَ من سيرة الوليد إلى أن تاريخ الأمويين قد كتبه العباسيون.

وبذلك يكون الدكتور الأشتر رحمه الله قد تجاوز المسالكَ النقدية المعروفة ليصل إلى البحث فيما وراء اللغة، من المضامين المستوردة، أو الغائبة، أو المسكوت عنها، كما تتبدّى من خلال الدلالات في النصوص المقروءة، ولاشك بأن اللغة العربية تتميز في هذا المجال عن أي لغة أخرى بما لها من خصوصيةٍ في التضمين، ووجود الأضداد، والمقاييس اللغوية، وبحور الاشتقاق، ومسارات المجاز المختلفة، إذ يشكل مجموعها مرتعًا خصبًا للتفسير والتأويل.

إنه مسلك قد يجد فيه البعض خلطًا للذات بالموضوع، وهذا ما يُعرّض الناقد لاتهامه بالانطباعية، ولكنه مسلكٌ حصيف، يستند إلى حساسية نقدية، تدعمها مرتكزاتٌ في علم النفس وعلم الجمال، بحيث تتسع آفاقُه «لتشمل أسرار اللغةِ عندما تتجلّى أدبًا» كما يقول عبد السلام المسدي.

أيها السيدات والسادة

لقد كان فقيدنا الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله من أولئك الأفذاذ الذين اختطّوا لأنفسهم مساراتٍ مضيئةً في دروب الأدب العربي قديمه وحديثه.

فهو الذي انتقل من مقالاتٍ تتناول الأدب العباسي شعرًا ونثرًا، إلى أخرى تدرس ما أحاط بالنكبة من أدبٍ روائي، إلى كتبٍ يختص كل منها بجزء هام من قضايا الفكر والثقافة العربية.

إلا أن منطلقاته الفكريةَ بقيت تحوم حول النقد وسيلةً أصيلةً للوصول إلى روح النص، التي لا يدركها الناقد إلا بعد إمرارها من ثقافته الحاملة لقناعاته، ولما انصبّ في وجدانه من إحساسات مجتمعية، ليعودَ إلى إخراجها بما يسميه صناعة التفكير مادةً سائغة تحملها لغةٌ أدبية شفافة لا تعقيد فيها.

وقد نجح الدكتور الأشتر حين نأى بنفسه عن تلك القلاع المعرفية المتعاقبة، التي تفرض قوالبَ جامدةً تدّعي احتكار فهم النصوص، وتتشبّث بتصنيفاتٍ تُبعثر العناصرَ النصيّة وتقضي على جمالياتها.

رحم الله فقيدنا الكبير، وأسكنه فسيح جنانه، وأبقى ذكرَه مثالًا لأجيالٍ لابدَّ لها أن تعيَ ثقافتها الأثيلة، قبل الانطلاق في إنتاجٍ أدبي يسيطر عليه فكرٌ لا أثر للأصالة فيه، متذرِّعين بمسايَرة الحداثة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد

في حفل تأبين الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر

بمديرية الثقافة بحلب بتاريخ ١٥/ ١١/ ٢٠١١

الأستاذ الدكتور موفق خلوف محافظ حلب ممثل راعية هذا الحفل التأبيني السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيّد رئيس الجمهورية

آل الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله

أيها الحفل الكريم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لكم أحس بالصعوبة وأنا أقف هذا الموقف في حفل تأبين علم من أعلام الحكمة والثقافة والأدب في أمتنا لعجزي عن إيفائه حقه تجاه ما يتسم به من مزايا ومناقب، إنه علم من أكبر الهامات الأكاديمية العلمية والأدبية، ذلكم هو الأديب الكبير الراحل الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله.

لم تتح لي الظروف لقاء فقيدنا إلا في ثمانينيات القرن الماضي، وكنت سعيدًا أيما سعادة بسيرته العطرة وذكره الطيّب على ألسنة المدرسين والطلاب في جامعة وهران بالجزائر حيث التحقتُ بها مدرسًا عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف، وكان الراحل الكبير قد درّس فيها من قبلُ أربع سنوات قبل التحاقي بها.

ولكم هو جميل ورائع أن يكون أحدنا سفيرًا لبلاده أنّى حلَّ وحيثما ارتحل، فيذكر الآخرون وطنه بكل إكبار وتقدير واحترام بفضل سلوكه الحميد وعقله الرشيد، ويقدّمُ النموذج الحيّ والقدوة الصالحة في تصرفاته وسائر حركاته، هاجسه خدمة الرسالة التي وقف نفسه لها، وغايتُه تأدية الأمانة التي كلفها، ولقد كان الدكتور الأشتر رحمه الله ذلك السفير المجلي المتميز لوطنه في حلّه وترحاله، خدمه بكل نزاهة وإخلاص وتجرد.

كان يتسم رحمه الله بحسه النقدي وحصافة الرأي منذ أن كان طالبًا في الدراسات العليا، فها هوذا يسبغ على كل أستاذ درّسه صفة تلمّسها في شخصيته من خلال تدريسه إذ يقول : «كنا نعشق في كل أستاذ صفته: في أحمد أمين الوضوح والعمق، وفي أمين الخولي القدرة على الإثارة والآراء المتجددة، وفي عبد الرحمن عزام نقاء عروبته ورعايته للطلبة العرب. ولكننا كنا نلتقي جميعًا هذا اللقاء العفوي من خلال هذه الشخصية الآسرة التي لا يكاد يفلت من أسرها أحد شخصية طه حسين التي كان لها في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب، والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر، والعطاء الخصب الذي لا يدانيه عطاء، إن وجوده المعنوي كان يسبق حضوره المادي، وهو من أوائل المفكرين العرب الذين ربطوا بين حرية الأديب وحرية الأدب».

وبعد أن التحق بالتدريس الجامعي كان رحمه الله مدرسًا مجليًا، وباحثًا أصيلًا، ومؤلفًا متميزًا، وكاتبًا قديرًا، وإعلاميًا كفيًا ومؤثرًا في العقول والقلوب والضمائر. مارس التدريس في مختلف المراحل التعليمية، كما مارس التأليف والكتابة الصحفية، والمشاركةَ في الندوات الإذاعية والتلفزية والإشرافَ على رسائل الدراسات العليا ومناقشةَ الرسائل الجامعية، فكانت حياته كلها حافلة بالعطاء وزاخرة بالخصب والنماء.

وتعد كتبه وبحوثه ومقالاته كنوزًا في حياتنا الثقافية، ينهل منها طلبة العلم والباحثون المهتمون بأصالة الفكر وبناء الأمة متعة الروح والعقل معًا، يشعرك بها في استعماله لغة تأسرك بحلاوتها وعذوبتها ورقتها بأسلوب ساحر يدفعك إلى التعلق بالموضوع الذي يتناوله دون ملل.

وماذا عساي أن أعدد من مؤلفات فقيدنا التي أجدني عاجزًا عن تعدادها وحصرها ومنها: التسهيل في دراسة الأدب الحديث، النثر المهجري وفنونه، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، نصوص مختارة من الأدب العباسي، غروب الأندلس وشجرة الدر،

نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث، معالم في النقد العربي الحديث، دراسات في أدب النكبة، العربية في مواجهة المخاطر...الخ.

وهكذا ترون أيتها السيدات، أيها السادة أن المشهد الثقافي فقد علمًا كبيرًا وعمودًا من أعمدة الثقافة العربية، وشعلة أنارت البصائر على مدى ستين عامًا.

أيها الحفل الكريم

بعد عودة كل منا إلى جامعتنا الأم، جامعة دمشق، كنت ألتقي الدكتور الأشتر في كلية الآداب بالجامعة، وطالما بحثنا في شؤوننا الجامعية، ثم التفتنا معًا إلى كتابة المقالة الصحفية متمثلة في «حديث الصباح» بجريدة البعث. وشكوت إليه مرة الضيق الذي أكابده من جرّاء كتابة الحديث وتقديمه في موعد محدد، وكنت آنئذ في السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات عميدًا لكلية التربية بجامعة دمشق، ولم يكن لديَّ الوقت الكافي للتفرغ إلى كتابة الأحاديث، فابتسم رحمه الله ابتسامته العذبة المعهودة، وقال لي: أخي محمود أحس بما تشعر به، ولكنني لا أوافقك على الرأي في التخلي عن كتابة الحديث، وأقول لك بكل صراحة لقد راودتني فكرة التخلي كما تراودك حاليًا، ولكنني عدلت عنها لإيماني بأن الكلمة مسؤولية وأمانة، وأن ثمة خيرًا في المقالة الصحفية، وأننا في أحاديثنا الصباحية كما في ندواتنا التلفزية نؤدي رسالة، وإذا تخلينا عن واجب الأداء فهذا يعني أننا نسير في الطريق الخطأ، وأربأ بك أن تسير فيه. والحق أقول لقد كانت كلماته بلسمًا ناجعًا ودواء شافيًا لما كنت أكابده، وتابعت كتابة «حديث الصباح» في الجريدة.

وتكررت لقاءاتنا في مناسبات متعددة، يبث كل منا إلى أخيه شؤونه وشجونه، وشاركنا معًا في ندوات مجمع اللغة العربية بدمشق ومؤتمراته، وفي الندوات التي كانت تقيمها وزارة الثقافة لتكريم بعض الأدباء الراحلين. ثم صدر القرار الجمهوري المتضمن تشكيل اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، وكان عضوًا فيها، وأُوكل إلى اللجنة وضعُ

خطةِ عمل وطنية للتمكين ومتابعةُ التنفيذ على أن تَعقِد اللجنة اجتماعات دورية لهذه الغاية، وتقدمَ تقاريرها الشهرية إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيّد رئيس الجمهورية راعيةِ هذا الحفل. واعتذر الأستاذ الدكتور الأشتر رحمه الله عن عدم تمكنه من حضور هذه الاجتماعات في دمشق لوضعه الصحي، فاقترحتُ باعتباري رئيسًا للجنة أن نرسل إليه التقاريرَ بوساطة الناسوخ (الفاكس) فيطلعَ عليها، ويزودَنا بملاحظاته وآرائه التي لا يمكن للجنة الاستغناءُ عنها بأي صورة من الصور، ووافقت السيدة نائب الرئيس على المقترح، وسارت الأمور على هذا النحو، فكنا – أعضاء اللجنة – ننتظر وصول النسائخ منه لنقرأها ونفيدَ منها في عملنا، إلا أنه حاول الاعتذار للمرة الثانية، وأرسل نسيخة إليَّ طالبًا رفعها إلى السيدة نائب رئيس الجمهورية، ويقول فيها: «وبعدُ فإني أجدني اليوم يا سيدتي، ونحن في الطريق إلى إتمام العام الثالث من عمر اللجنة- وأكون عندها بلغت الثمانين- مدعوًا إلى تسليم الأمانة، ليتاح تسميةُ البديل، شاكرًا للسيّد الرئيس ثقتَه الغاليةَ، ولك يا سيدتي أجملُ ما يحفظ الإنسان للإنسان من جمال الصلة وشكرِها أيضًا. أسأل الله حسن الخاتمة، وأن يهيئ للجنة من بعدُ سبل التوفيق فيما تتولى أمانته، وأن يلازمها فيه الإيمانُ بالحرص على رعاية أسس التمكين». إلا أن الاعتذار لم يقبل بسبب الحرص العميق على استمراريته في اللجنة مهما تكُ ظروفه بغية الإفادة من ملاحظاته وآرائه القيمة.

أيها الحفل الكريم

يقول شاعرنا العربي:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفي ضوء ذلك أشهد أن نفسَ فقيدنا كانت عاليةً وعاليةً جدًا، فإذا ذكر سمو النفس ذكر فقيدنا الغالي، وإذا ذكر التهذيب الجم ذكر فقيدنا الغالي، ولقد لمستم هذا التهذيب في الرسالة السابقة، وتلمسونه في جميع جوانب حياته، فها هو ذا يرسل رسالة إلى

أمينة سر لجنة التمكين يستهلها قائلًا: ابنتي الفاضلة الآنسة ريام: صباح الخير، أكون شاكرًا لو تكرمت بنقل شكري العميق للسيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيد رئيس الجمهورية على دعوتيها الكريمتين الغاليتين وعجزي عن تلبيتهما، ودمت لكل جميل طيّب».

وما من رسالة أرسلها إلى اللجنة إلا ويحيي أعضاءها ويشكرُهم ويدعو لهم بالخير والتوفيق، وما من كتاب ألفَّه إلا وأرسل إليَّ نسخة منه هدية وقد توّج الإهداء بعبارات المودة والتحية والذكرى الطيبة.

تلك هي بعض سمات فقيدنا الراحل، ومع أننا نستخدم كلمة «راحل» إلا أنه حيٌّ في العقول والنفوس والضمائر، ألم يقل شاعرنا العربي:

مـوت النقـي حيـاة لا نفـاد لهـا قد مات قوم وهم في الناس أحياءُ

ولله در أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

المجد والشرف الرفيع صحيفةٌ جعلـت لهـا الأخـلاقُ كـالعنوان

وجدانك الحيُّ المقيمُ على المدى ولـربّ حـيٍّ ميّـتِ الوجـدان

ولقد تجلّى هذا الوجدان الحيّ المقيم على المدى في جوانب حياة فقيدنا كلها، وإذا كان شاعرنا العربي يقول:

قـد عرفنـاك باختيـارك مُـذ كـا ن دلـيلًا عـلى اللبيـب اختيـاره

فإننا سنأخذ مثالًا على مشاعره الإنسانية المرهفة من اختياره مواقف إنسانية في الشعر والحياة معًا، وها هو ذا يتخيّر ثلاث قصائد لشعراء شاعت على ألسنة الناس قصيدة واحدة من شعرهم طغت على ما قالوه جميعًا. ومن أصحاب الواحدة أي القصيدة الواحدة التي شاعت على الألسنة دون غيرها الشاعرُ الإربلي البحراني في قصيدته الهائية على أنها مثال للفجيعة بالإنسان:

ربّ دار بالغضـا طـال بلاهـا عكـف الركـب عليهـا فبكاهـا

كـان لي فيهـا زمـان وانقضى فسـقى الله زمـاني وسـقاها!

ومن أصحاب الواحدة الشاعر العراقي ابن زُريق البغدادي، وقد تخيّر قصيدته الهائية أيضًا على أنها مثال للفجيعة بالحياة، إذ يصور فيها تجربة الغربة والحنين، وهي في معنى من معانيها تحمل الخيبة التي تتعدد صورها في حياة الناس، ويقول فيها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في لومه حدًا أضرَّ به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلًا من عنفه فهو مضنى القلب موجعه

ومن أصحاب الواحدة الشاعرُ الأندلسيُ أبو البقاء الرندي، وقد تخيّر قصيدته:

لكـلّ شيء إذا مـا تـم نقصـان فـلا يغـرَّ بطيـب العـيش إنسـان

على أنها مثال على الفجيعة بالوطن عندما تفككت ممالكُ الأندلس وسقطت معظم حواضرها بلنسية، مُرسية، قرطبة، اشبيلية:

قواعـد كـنَّ أركـان الـبلاد فـما عسـى البقـاء إذا لم تبـق أركـانُ

وينادي الشاعر فيها بأعلى صوته:

ألا نفـوسٌ أبيّـات لهـا همـمٌ أمـا عـلى الخـير أنصـار وأعـوان؟

لمثل هذا يذوب القلـبُ مـن كمـدٍ إن كان في القلب إسـلامٌ وإيـمان!

وما اختيار فقيدِنا الغالي لكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وإعادةُ نشره بعد أن أعاد النظر فيه إلا لإيمانه بالمقاومة إذ يقول: إن غاية ما أبتغيه من نشر الكتاب مرة أخرى في طبعته الكاملة هذه بعد أن أعدت النظر فيه إعادة شاملة، أن تقع الإفادة منه في هذه الأيام الحرجة التي نواجه فيها غزوًا استيطانيًا جديدًا يذكّر بغزو الإفرنج أيام حروب الفرنجة في

عصر أسامة، فيعين في نشر نصوصه على تقويةِ روح المقاومة في نفوس الناس على أنها الطريق إلى عزة الأمة، وبثِّ الثقة والاعتبارِ بما نجم لنا تحقيقُه تلك الأيام واستخلاصِ الدروس منها، فالكتاب في جملته يعد فوق مزاياه الفنية وثيقة حية قل نظيرها في رصد إحساسنا بالتفوق الحضاري العام في القرون الوسطى».

وكان يرى أن في الاطلاع على كتب الرحلة في القديم والحديث ثقافةً متصلة بالعصر الذي نحن فيه، لم يصغها الفكر وحده، بل صاغتها النفس المنفعلة بمجموعها حِسا وفكرًا ووجدانًا وحركة حية، فهذه تجارب تاريخية إنسانية لم يبدعها الخيال، ولكن صاغتها حقائق المشاهدة والانفعال الحيّ فيها.

وفي وقفاته النقدية الأدبية على أعمال بعض النقاد العرب المعاصرين من أمثال الدكتور أحمد كمال زكي، والدكتور محمد زكي العشماوي، ورجاء النقاش، والدكتور عبد الملك مرتاض، كان يرى أن في هذه الوقفات تقريبًا للقارئ العربي وطلاب الجامعات بخاصة من مذاهب الفكر والفن وأعلامهما في الغرب، وما يشكو منه إنسان العصر من غلبة المادة على الروح ومن الغربة وضعف الإيمان بالخالق والتمرد عليه وشيوعِ النزوع إلى العبثية وافتقادِ الأمن.

ويحسن بنا في هذه المناسبة أن نطلع على جانب من درر أفكاره النيّرة في قضايانا الثقافية لنتبين رجاحةَ الرأي وسدادَه بعد أن تعرفنا رهافةَ الحس ويقظةَ الوجدان.

أما آراؤه التربوية فقد اتسمت بالحكمة ومواكبة الاتجاهات التربوية الحديثة فهاهو ذا يقول: إن رسالتنا الجامعية الحقيقية هي في تكوينِ الفرد وتنميةِ شخصيته الفكرية وإيقاظِ وعيه ودفعهِ إلى اقتحام المجهول، والكشفِ عن الآفاق المعرفية الجديدة وإبداعِ الحلول للمشكلات الماثلة فيها. ونحن في جامعاتنا العربية نتوجه أكثر ما نتوجه إلى خطاب الذاكرة لا إلى خطاب العقل، ونرمي إلى تحفيظ الحقائق لا إلى تركيبها أو إبداعها.

إن جوهر العمل التربوي هو تنشيط الحركة الذهنية. ولقد علمتني الحياة أن أغنى الغنى غنى النفس، وأخصبَ الخصب خصبُ التكوين ومواتاةُ الطبع، وعلمتني أن أساس النجاح في عملنا التربوي يقوم على تقليص المسافة بيننا وبين الطالب، فبغير الإحساس بعمق الصلة بيننا وبينه، صلةِ الود والتقدير المتبادل، تصبح العملية التربوية جافة، ويغيب فيها الجانب الإنساني الحي».

وجميل جدًا موقفه من التراث والمعاصرة، فقد دعا رحمه الله إلى فهم التراث وفحصه والإفادة من كنوزه المعرفية والجمالية في خدمة الحاضر، فالتراث كما يرى في كتابه «فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية» صخرة مكينة يمكن أن نجعلها عقبة في الطريق إلى المستقبل، ويمكن أن نبني عليها بيتنا الحديث: والمطلوب أن نكون أمناء وأحرارًا في وقت واحد، أمناء على التراث نحفظه ونفهمه ونقدره ونغار عليه، ولا ننقطع عنه، وأحرارًا لا نتعبده ولا ننقطع إليه.

أما الحداثة في نظره فهي المعاصرة، وهي قبول العصر والتفاعل معه، والقدرة على اختيارِ طريقنا منه والدخولِ بأنفسنا وتسجيلِ هويتنا الحضارية فيه، وهي ما لا يستطيعه الغرباء عن العصر والمنقطعون عنه إلى الماضي، ولا الغرباء عن أنفسهم الذين انقطعوا عن أصولهم، فهم جميعًا غرباء يقفون على خط واحد، وإن وقفوا في طرفين متقابلين.

أما موقفه من العولمة فيتمثل في قوله: «علينا ألا نقصّر في دراسة منجزات العصر في كل الميادين، وألا نقصّر في تعلم اللغات التي تدنينا منها، والانفتاحِ على حقائق المعرفة الإنسانية في العلوم كافة، ودراسةِ ما نملكه في ضوئها وتقويمِه في غير تعبد ولا تصلب ولا خوف ولا إحساس بالنقص، فالمعرفة حق لكل البشر إذا استطاعوا امتلاكها، ثم إن الحضارات الضعيفة حين تنغلق على نفسها، وتجتر ثقافتها الخاصة، وتقيم من حولها الأسوار بدعوى الحفاظ على نفسها تؤتى من مأمنها ويقتلها ضعفها، وليس من بديل

أمامها إلا أن تغرِسَ أقدامها في تربة ثقافتها، وتفتح منافذها لرياح الثقافات الأخرى».

أيها الحفل الكريم

إذا كنا قدمنا باقة من اختياراته في تسليط الأضواء على بعض المواقف الإنسانية والفكرية فحري بنا أن نقدم باقة من آرائه العملية في مجال التمكين للغة العربية مادامت الكلمة هي كلمة لجنة التمكين.

لقد كان فقيدنا متألمًا أشد الألم من واقع الحال اللغوي في أقطارنا العربية ولطالما شكا من سوء هذا الواقع، فلنستمع إليه يقول: «إن الأمة تعاني في أقطارها المختلفة من زحف العاميات مفردات وأنساقًا على التعبير الشفهي والكتابي في مراكز الحياة الإدارية والوظيفية وصولًا إلى الخطاب نفسه، حتى أصبحنا نشهد اليوم من طغيان العاميات في أجهزة الإعلام المرئي والمسموع ما أخذ الناس والمسؤولون في المؤسسات الثقافية قاطبة يألفونه ويستطيبونه وينامون عنه، وأصبحنا نسمع على اختلاف مراتبهم واختصاصاتهم من يدعو إلى هجر التقعيد النحوي والصرفي، ثم إلى استبدال العامية بالفصيحة في الحياة العامة وفي النتاج الأدبي والثقافي والإبداعي على حدٍ سواء!

إن ما وصلت إليه الحال في الساحة اللغوية (وهي الساحة التي نبني فيها انتماءنا الصريح، ونخط هويتنا الفكرية ومشروعنا الحضاري العام، وندخل على المستقبل الذي نريده من أبوابه كلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية) لا يبشر بالخير أبدًا. بل ينذر بشر ما نحن فيه: انحلال الروابط، وتجزئة الأرض، وضياع الإنسان وعزله، والانجراف المرسوم في تيار العولمة بمفهومها القائم الذي يعني السيطرة على الاقتصادات الضعيفة وطيَّ ثقافات أهلها لصالح الاقتصادات القوية وثقافاتها المتقدمة».

وبعد رصد هذا الواقع يقول بكل صراحة وشفافية وشعور عالٍ بالمسؤولية: «يؤلمني أن يصل بي التفكير في الهم اللغوي إلى الإحساس بعجزنا عن حمله في ساحتنا

الوطنية وحدها، على حين تبقى معظم الساحات العربية بعيدة عنه على أقدار نسبية، فالغِناء خارج السرب يبقى صعبًا، ويصل بنا أحيانًا إلى الحزن، إذ يقود إلى التساؤل عن قدر الانتفاع بما نحن في صدده».

ومع ذلك يرى أن جدار الخلاص يتمثل في اللغة العربية الواحدة، وحدة الأمة ووحدة تراثها، صوت ضميرها العميق المنبعث من أعماق التاريخ وخشبة الصلب والموت في وقت واحد.

ومن آرائه ومقترحاته العملية في مجال تمكين اللغة العربية والتي زوّد لجنة التمكين بها تكليفُ متخصصين وضعَ معجم صغير تفصّح فيه أكثر المفردات والتراكيب ورودًا في المحكية العامية السورية ليكون في الأيدي تعود إليه اللجنة في توجهها، ووضعَ كتاب صغير تجمع فيه أهم قواعد الكتابة السليمة نحوًا وإملاءً، وتتولى توزيعه على الدوائر والمؤسسات، ووضعَ آلية للتدقيق اللغوي في مؤسسات الدولة قاطبة، واختيارَ العناصر الصالحة لتأدية هذا الواجب، إذ إن أكثرهم لا يحمل غير الشهادة الثانوية في أغلب الأحوال، ويرى أن يلجأ إلى زرع المدققين اللغويين في لغة البث في أجهزة الإعلام كلها لرصد الأخطاء وتنبيه المذيعين عليها، وألا يكتفى بإقامة الدورات التدريبية. وفي مجال الإعلام أيضًا اقترح أن توكل إلى بعض العاملين القادرين في مجال الإعلام كتابةُ برامج عملية خفيفة وجذابة تستعين بالحوار والحكاية والمشاهد التمثيلية السريعة لبلوغ هذه الغاية، فإذا بلغ البرنامج من النجاح ما يجعل وسائل الإعلام العربية الأخرى تحذو حذوها وتقتدي بها، فيقع الإشعاع بها في الطرفين.

وفي الاحتفال بيوم اللغة الأم في الحادي والعشرين من شباط اقترح إقامة موازنة بين النهوض بالعبرية الميتة حتى نهايات القرن الماضي، والرقي بها إلى درجة استيعابها للمنجز العلمي المتطور وإنتاجه، وبين العربية في مؤسسات التعليم العالي في الساحة

العربية قاطبة، وقد سموا جامعتهم الجامعةَ العبرية لا الجامعة الإسرائيلية لإدراكهم مكان اللغة من سعيهم إلى طوائفهم في أنحاء العالم القديم والحديث.

وفي مجال التحرر من الأمية دعا إلى إنشاء مراكز لا مدارس لتحرير كثير من الشباب (ذكورًا وإناثًا) من ربقة الأمية في الأرياف بخاصة، فإن ما رآه من أعدادهم في حلب كما يقول يسد البصر! وقد أنهى بعضهم خدمة العلم، وغادرها على الحال نفسها! على حد تعبيره.

أما مقترحاته في مجال القراءة فقد تجلت في تخصيص بعض الأركان في المقاهي ودور الترويح والأماكن التي يرتادها الناس على اختلاف مقاصدها، تعرض فيها، فضلًا على الصحف والمجلات، كتب جذابة خفيفة تغري الرواد باقتنائها لهم أولًا ولأولادهم في البيت. وإن إقامة مكتبات صغيرة في البيوت تجمع فيها الكتب في مدار الأيام، ويعين الرجوعُ إليها على تقوية الحافز، وغرسِ عادة القراءة في أفراد الأسرة صغارًا وكبارًا خطوةٌ أصبحت ضرورية في عصر التلفاز والحاسوب والشابكة، والانصراف منها عن القراءة الورقية التي هي الأساس دائمًا لكل ما ننوي النهوض به.

ولعلَّ من أكثر المقترحات التي ركز عليها مقترَحه: الجدية، الجدية، الجدية، والتقليل من الكلام والتنظير، مع الكثير من الفعل، هما الدواء الشافي لمجتمع مسترخ لا تصلح فيه التعميمات والتنظيرات مهما تفننا فيها.

وبعد أن قدم فقيدنا الراحل باقة من المقترحات العملية للنهوض باللغة العربية يقول: «أتمنى أن يكون محصول الجُهد الذي تبذله اللجنة على مختلف الصعد مرضيًا فإن العبرة دائمًا بالنتائج، وللنتائج مقدمات، والمقدمات تقتضي أن تكتسب قرارات اللجنة صفة الإلزام».

أيها الحفل الكريم

كان فقيدنا يتسم برهافة الحس ويقظة الوجدان ورجاحة العقل، يزين ذلك كله

مشاعر إنسانية نبيلة افتقدناها في عصر انحسرت منه القيم المعنوية واجتاحته قيم الاستهلاك، وسادت فيه المصالح حتى بات ينطبق عليه قول شاعرنا العربي:

حياك من لم تكن ترجو تحيته ... لولا المصالح ما حياك إنسان

في عصر تلك هي سماته كان فقيدنا الكبير ينأى بنفسه عن مواضع التهم ويشمخ بمثله وقيمه في عالم الحق والخير والجمال، فكان الاتزان في سلوكه فكرًا ونزوعًا وأداءً يتجلى في جميع المواقع التي عمل فيها.

وسيبقى اسم فقيدنا الغالي ماثلًا في العقول والقلوب لأنه كان بارًا بتنوير العقول والبصائر، وعاملًا على إشاعة الحب في القلوب ببيانٍ عذبٍ، وأسلوب رشيق، تزينه عواطف إنسانية نبيلة، ومشاعر وجدانية رقيقة.

رحم الله فقيدنا الكبير الرحمة الواسعة سعة ما قدمه لأمته من أفانين الثقافة الهادفة والملتزمة. وعزاؤنا برحيله الأبنية البشرية العالية والقوية التي بناها بنين وبنات فأحسن البنا علمًا وخلقًا ومناقب رفيعة (الدكتور محمد، والدكتور أحمد، والدكتورة سحر، والدكتورة عبير، والدكتورة رحاب: حفظهم الله جميعًا). وعزاؤنا برحيله المؤلفات القيمة التي أبدعها يراعه فأضحت منهلًا عذبًا لرواد العلم وناشدي الثقافة. وعزاؤنا برحيله السيرة العطرة التي خلَّفها وراءه:

يضوع عبير المسك إن ذُكر اسمُه ... فنذكره والطيب يعشقه القلبُ

وأخيرًا أتساءَل قائلًا:

مَنْ للفصاحةِ بعد فقدِ الأشتر ... مَنْ للفضيلة والسماحة والتقى؟

قلبي يشارككم عظيم مصابكم ... في مؤمنٍ نحو الجنان قد ارتقى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته